ستيفان زفايغ

السرّ الحارق

ترجمة: عبدالكريم بدرخان



السر الحارق

ستيفان زفايغ

السرّ الحارق

حين يقطع الحطّاب شجرةً ليتدفأ بها، لا يفكّر في العصفور الذي يحرمه دفء عشّه بين أغصانها، ولكنه يشفق عليه إذ يراه مقرورًا يناجي وهجًا كاذبًا خلف نافذته. كذلك هو الإنسان في تعامله مع أخيه الإنسان، لحظة تستبدّ به شهوة التملّك، وتتضخّم فيه نرجسيّة الذات. حطّاب لا تصمد أمامه أصلب الأشجار، ولا هو يهتمّ بما يسقط من فراخ.

لم يتوقّفْ ستيفان زفايغ طوال مسيرته الإبداعية عن الحفر في باطن الذات الإنسانية ومكاشفة أدقّ خفاياها وأعنف انفعالاتها كالحبّ والشغف والقلق والخوف والكراهية والحقد... وبلا مواربة أو إيهام يضعنا أمام الحقيقة، وهو يصوغها في رواية «السرّ الحارق» على لسان طفل في الثانية عشرة من عمره لمّا يبلغ الحلم. وعندما يتوقّف النضج عن أن يكون معيارًا للحكم على الأشخاص، تتكشف لنا الحياة من زوايا نعجز عن بلوغها أو حتى عن إدراكها إدراكًا مجرّدًا.

تحوّلتْ هذه الرواية إلى فيلم سينمائيّ ثلاث مرّات، كانت الأولى عام 1933 وحينها منعت الحكومة النازية ممثّلة بوزير الدعاية جوزف غوبلز عرضَ الفيلم في الصالات الألمانية. الثانية عام 1977، والثالثة عام 1988.

بلال المسعودي

ستيفان زفايغ



ترجمة: عبدالكريم بدر خان



الكاتب: ستيفان زفايغ

عنوان الكتاب: السرّ الحارق

ترجمة: عبدالكريم بدر خان

تدقيق: بلال المسعودي

خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة

تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان

ر.د.م.ك: 978-9938-24-000-9

الطبعة الأولى: 2018



مسكلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 537090811(966+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com



Ottawa, ON. Canada

info@masaapublishing.com

www.masaapublishing.com

(1)

الشريكة

أطلقَ القطارُ صافرته المدويّة عند وصوله إلى بلدة «سيمرينغ»، وتوقفتْ عرباتُه السّودُ بين صفَّين من الجبال الفضّيّة، سامحةً لمجموعةٍ من الركاب بالنزول منها، ولأُخرى بالصعود إليها. ارتفعتْ أصواتُ الناس كما لو أنها مشاجرة، ثم لفظَ المحرّكُ صيحتَه الغليظة مجدّدًا، ساحبًا سلسلة العربات السّوداء إلى البعيد، هادرًا باتجاه النّفق. ومن جديد، عاد المشهدُ إلى ما كان عليه من هدوء وصفاء، مغسولا بالمطر المحمول على أكفّ الرّياح النّدية.

ثمّةَ من بين الواصلين، رجلٌ سرقَ الأنظار ولفتَ الانتباه بثيابه الأنيقة ومِشيته الموزونة المميّزة. أسرعَ متخطّيًا الجميع، ثم استقلَّ عربةً سارتْ به في اتجاه الفندق. كانت حوافرُ الخيل تخبُّ على الدّرب صاعدةً إلى الأعلى على مهلها، وسْطَ جوٍّ ربيعي تبحرُ في سمائه تلك الغيومُ البيض التي تراها في أيّار وحزيران، لكنّها اليوم أشبه برهطٍ من صبيانٍ وبناتٍ متّشحين بالأبيض، يلاحقونَ بعضهم بعضًا بمرحٍ في قبة السّماء الزّرقاء، يختبئون تارةً خلف الجبال، لعناقٍ... ثم لفراق. ويجتمعون طورًا مشكّلينَ وشاحًا واحدًا، ثم ينسَلُّون من بعضهم البعض كالخيوط. وفي النهاية يمازحون الجبال، ويجلسون

على رؤوسها كالقبّعات البيضاء. لم تهدأ الرّيح بعد، فهي مازالت تهزّ الأشجار النحيلة بأيادٍ محمّلةٍ بالمطر، وتصفُر بين شقوق الأشجار الضخمة ناثرةً آلافَ القطراتِ المتلألئة. بين الفينة والأخرى، تهبُّ نسمةٌ باردة من صوب الجبال المغطّاة بالثلج، فتحسُّ بلُطفها وقسوتها حين تستنشقها. كان كلُّ ما في الجوّ وما على الأرض يتحرّكُ ويتبرّم ويستاء. صهلت الجيادُ وهي تنزلُ من أعلى التلّ هذه المرة، وكان صوتُ أجراسها يسبقُها بكثير.

أوّلُ ما قام به الرجلُ عند وصوله إلى الفندق، هو تفحّصُ قائمة النُزلاء، فخابَ أملُه واستاءَ فورًا: لماذا جئتُ؟ -راح يسأل نفسه دون رحمة- لماذا أبقى وحيدًا في هذه الجبال دون أصحابٍ أعرفهم وأنسجم معهم؟ هذا أسوأُ من البقاء في مكتب العمل! من الواضح أنني قد أتيتُ قبل بدء الموسم أو بعد نهايته، وغالبًا ما يخونني الحظّ عند اختيار توقيت الإجازة أو مكانها، وها أنا الآن لا أعرف أحدًا من النزلاء! آهٍ لو أنّ في الفندق بضعة سيّدات، عندها ستساعدني كلماتُ الغزل والمداعباتُ اللطيفة على البقاء لمدة أسبوعٍ هنا.

كان الرجل وهو في الحقيقة بارون من عائلة أرستقراطية أوّل فردٍ من عائلته يشغل وظيفة في الدولة النمساوية، وقد أخذَ إجازةً من العمل دون أنْ يفكّر في حاجةٍ إلى أي شخص. السبب الرئيس هو أنّ كلّ زملائه قد أخذوا إجازاتٍ مع قدوم الربيع، ولم يرغبْ هو بتقديم خدمةٍ للمكتب، والبقاء فيه وحيدًا على حساب حقّه في الإجازة. رغم ذلك، لم يكن الرجل دون أسلحةٍ داخلية، فهو

اجتماعيٌّ بطبعه ومحبوبٌ على الدوام، فقد كان مُرحّبًا به أينما حلّ. في الواقع كان من الأشخاص الذين لا يميلون إلى العزلة، فهو يدرك تمامًا عجزه عن تحمُّل الوحدة، ولطالما تجنّبها قدر استطاعته، ولم يرضَ لنفسه أنْ تعتاد على الاكتفاء بذاتها. كان يعلمُ أنّ عليه استعراضَ مواهبه بأحسن صُوَرها، وإلقاءَ بريقه في عيون الآخرين، ليستمدَّ منهم جذوة النار التي تُدفئ قلبه وتؤنسه. أما الوحدة، فهي تجعل منه كائنًا متجمّدًا، لا فائدة منه على الإطلاق، مثل عود ثقابٍ نائم في علبة الكبريت.

راح يمشي في بهو الفندق الخالي جيئةً وذهابًا بمزاجٍ متبرّم ومكتئب، يقلّب صفحات الجريدة على عجل، ثم يعزف مقطوعة «فالس» على البيانو في حُجرة الموسيقى، لكنّ أعصابه لم تقدر على ضبط إيقاعها بالشكل الصحيح. وفي النهاية جلسَ مغتمًّا ومهمومًا، يرقبُ الظلام وهو يحلُّ ببطء على المكان، والكآبة الرمادية للسديم المتصاعد من شجر الصنوبر. لقد أضاعَ ساعةً خاملةً ومتوترة على هذه الحال، ثم التحق بصالة الطعام.

لم يكن في الصالة سوى بضع طاولاتٍ مشغولة، ألقى عليها نظرةً عابرة، ثم لعنَ حظّه مجدّدًا إذ لم يعرف أحدًا منهم، باستثناء مدرّب خيول السباق الذي سبقَ أنْ التقى به مرةً في فيينا. هذا كلّ شيء! لا سيّدات، لا شيء يعطي الأمل بفرصةٍ أو إمكانيةٍ لأيّ مغامرة عابرة. ازداد استياؤه واحتدَّ غضبه، فهو من الرجال الذين حقّقَ لهم الوجهُ الوسيم نجاحاتٍ باهرة في الماضي، وقد كان -وما يزال- جاهزًا

على الدوام لأيّ لقاء أو مصادفة، لأي تجربة ممتعة. إنه مستعدٌّ دائمًا لأنْ يُلقي بنفسه في أرض المغامرة المجهولة، دون أنْ يفاجئه أيُّ شيء، فقد أعدَّ العُدّة مسبقًا وجلس ينتظر ما قد يحدث. إنهُ رجلٌ لا يفوّتُ على نفسه أي فرصةٍ للمتعة، عيناهُ تتفحّصانِ كلّ امرأةٍ يراها، تستقرئانِ شهوتها وتسبرانِ أغوارها، دون أيّ تمييزٍ بين زوجة صديقه أو الخادمة التي فتحتْ له الباب. رجالٌ من طينته، يمكن اختصارهم بوصفٍ يجمعُ بين المدح والذمّ: «قاتلوا النساء»! وفي هذا الوصف شيءٌ من الحقيقة، إذ ترى دوافعهم الجنسية مستعدة ومتأهّبة في كل وقت، جاهزة دومًا لمطاردة الفريسة، وبحالةٍ نفسيّة لا تتردّد في القتل. تجدهم في حالة تأهُّب دائم، جاهزين للمغامرة وراغبين في المجازفة حتى لو أوصلتْهم إلى حافة الهاوية. إنهم مسكونون بالرغبة طوال الوقت، لكنها رغبةُ المقامر أكثر من كونها رغبة العاشق، فهي باردةٌ ومحسوبة وخطيرة. بعضهم دؤوبون وملحّون جدًّا، يعيشون حياتهم من الشباب وحتى الكهولة على شكل مغامرةٍ أبديةٍ يقودُها طموحٌ أوحد، ويتألف كلُّ يومٍ عندهم من مئات الشذرات الشهوانية الصغيرة: نظرة عابرة، ابتسامة خاطفة، ركبتان تلتصقان ببعضهما مثل عاشقين متعانقين... وتتألف كل سنةٍ من حياتهم من مئاتٍ من تلك الأيام التي تتدفقُ فيها الشهوة باستمرارٍ مغذّيةً عصبَ الحياة.

لكن، لا شركاء للعب هنا! أيقنَ الصيادُ ذلك، ولا أسوأَ عند المقامر أو أكثرَ إحباطًا من الجلوس أمام الطاولة ذات الغطاء الأخضر، ممسكًا أوراقَ اللعب بيديه، واثقًا من مهاراته الخارقة،

ومنتظرًا -عبثًا- شريكًا للعب. طلبَ البارون جريدة، وراح ينقّل عينيه العابستين على العناوين، لكنّ أفكاره كانت على درجةٍ من التشوُّش، تمنعه من أنْ يفهم كلمةً واحدةً مما يقرأ، وكأنه مخبول أو سكران.

فجأةً، سمعَ حفيفَ ثوبٍ قادمٍ من الخلف، وصوتًا حانقًا بعض الشيء يتكلّم الفرنسيّة بلكنةٍ متكلّفة: «لكنْ، اخرَسْ يا إدغار!» مرَّ الفستانُ الحريري مثل النسمة بمحاذاة طاولته، ومرَّ معه قوامٌ ممشوق وفاتن كالخيال، وخلفَ القوامِ ثمّة ولدٌ شاحب الوجه يرتدي بذلةً مخمليّة سوداء. نظرَ الولدُ إليه بفضول، ثم جلس الاثنان إلى الطاولة المقابلة. من الواضح أنّ الطفل يحاول التصرّف على النحو المطلوب، إذ تبصرُ ذلك في عينيه الحائرتين الخائفتين. أما السيدة -وقد انصبَّ عليها اهتمامُ البارون كاملا- فقد كانت أنيقةً جدًّا، وصاحبةَ ذوقٍ رفيع في اختيار الفساتين وتصفيف الشعر. وكانت فوق ذلك، من النوع الذي يحبّه كثيرًا، فهي امرأة شهيّة -على الأرجح هي يهودية- في السنّ التي تبلغ فيها المرأة أوجَ اكتمالها. تبدو متّقدة الأحاسيس، لكنها تملك من الخبرة ما يكفي لإخفاء طِبَاعها تحت قناعٍ من الحزن الجليل. في البداية تجنّبَ النظرَ إلى عينيها، لكنه لم يُخفِ إعجابه بخطَّي حاجبيها المرسومين بدقّةٍ متناهية، مثل قوسينِ بديعين فوق أنفٍ شامخٍ يشي بأصالة عرقها. لقد كان أنفها مميّزًا حقًّا، ما يعطي لصورتها الجانبية جاذبية خاصة. أما شَعرها فقد كان -مثل كلّ التفاصيل الأنثوية لجسدها النفيس- بالغ الترف والأناقة. يبدو أنها

راضيةٌ عن جمالها إلى حدّ الغرور، يتّضح ذلك من ثقتها العالية في نفسها، والتفاتِ الأنظار إليها.

كانت تُلقي أوامرها بصوتٍ منخفض جدًّا، موبّخةً الولد عندما يلعبُ بالشوكة، دون أيّ اهتمام أو مبالاة بالنظرات الملحّة التي يرمقُها البارونُ بها. يبدو أنها لم تلحظْ وجوده أصلا، أو أنّ الحيطة والحذر قد جعلاها تتصرّف بنوعٍ من الاحتراس الرصين.

انقلبَ وجهُ البارون من العتمة إلى الإشراق، ففي أعماق أعماقه، كانت أعصابه تجري عمليّة إنعاشٍ شاملة، تبسط قسَماتِ وجهه المتغضّن، تُرخي عضلاته المتشنّجة، تشدُّ قامته وتُعيد إلى عينيه البريق. هو -في الحقيقة- لا يختلفُ عن أولئك النسوة اللاتي يحتجنَ إلى حضور رجُلٍ لكي يُظهرنَ قدراتهنّ الكاملة، فلا شيء غير الانجذاب الجنسيّ يشحذُ طاقاته ويرفعها إلى الحدّ الأقصى. اشتمَّ الصيادُ رائحة الفريسة، وبرغبةٍ تجمعُ بين الجرأة والتحدّي، راحتْ عيناه تبحثانِ عن عينيها. تانك العينان اللتان ردَّتا على إحدى نظراته بتردُّدٍ خاطف، لكنهما لم تُعطيا أيّ جوابٍ واضحٍ أو صريح. هو أيضًا، لمحَ خطوطَ ابتسامةٍ على وشك الارتسامِ على فمها، لكنه لم يكن متأكدًا منها، وقد زادتْ هذه الشكوك من إثارته. الأمرُ الوحيدُ الذي أوحى إليه ببارقة أمل، هو رفضُها المتواصل لأنْ تنظر في عينيه، وهذا ما يكشفُ عن تمنُّعها وإدراكها لوجوده وتصرفاته، إضافةً إلى تلك الطريقة الشديدة الدقّة والغرابة التي تتحدّث بها إلى طفلها، ما يشي بأنها تتصنّع أمام شخص يراقبها. يدلّ هذا القناع من الهدوء

الراسخ -كما أحسَّ هو- على أنها بدأتْ ترتبك! أثارت اللعبةُ حماسَ البارون، فأطالَ وقتَ العشاء قدر الإمكان، مُبقيًا عينيه مُسَمَّرتين عليها لمدةٍ تقارب نصف الساعة، وكأنه يتتبّعُ خطوطَ وجهها واحدًا واحدًا، ويلمسُ -في سرّهِ- تضاريسَ جسدها الوفير.

في الخارج، كان الظلام قد حلّ تمامًا، فتنهّدت الغاباتُ مثل طفلٍ مذهول، وتصاعدت الغيومُ الحُبلى بالمطر بأذرعها الرمادية إلى الأعلى. صارت الظلال المعتمة تتسلّل تباعًا إلى الصالة، وبدأ الناسُ يغادرونها الواحد تلو الآخر. لم يبقَ في هذا الصمت سوى محادثة الأم مع طفلها، ويبدو أنها قد صارت قسريّةً ومصطنعةً تحت وطأة الصمت، ولا بدّ من أنها ستتلاشى عما قريب. قرّر البارونُ أنْ يجسّ نبْضَ الطرف الآخر، فنهضَ ممرّرًا عينيه عليها وعلى المنظر الطبيعي خلفها، ثم مشى في اتجاه الباب. وهناك أدارَ رأسه بسرعةٍ نحو الخلف، كمَن نسيَ شيئًا وراءه، ليُمسكَ بنظرتها المثبّتة عليه.

كم فتنتْهُ تلك النظرة! فجلس في بهو الفندق منتظرًا. بعد قليل، خرجتْ من الصالة مع ابنها، وهي تمسكُ بجريدةٍ تقلّبُ صفحاتها، وتشير إلى بعض الصور لكي ينظر الطفل إليها. نهضَ البارون واتجه إلى طاولة الجرائد ليختار واحدةً منها في الظاهر، ولكي ينظرُ عميقًا في عينيها المتلألئتين في الباطن، وربما ليفتتحَ حديثًا معها. لكنها أدارتْ وجهها وربّتتْ على كتف طفلها: «هيّا إلى النوم يا إدغار، هيّا»، وعبرتْ أمامه بثوبٍ يخشخش. نظر البارون إليها بحزن وهي تغادر، فقد حسِبَ أنه سيتعرّف عليها بصورةٍ أفضل هذا المساء، ولهذا كان

سلوكُها الفظُّ بمثابة انتكاسةٍ له. رغم ذلك، أحسَّ أنّ تمنُّعها كاذب، فزادَت الشكوكُ من رغبته. وفي كل الأحوال، لقد وجدَ شريكةً له، وها قد بدأت اللعبة.

(2)
صداقة خاطفة

عندما نزل البارون إلى بهو الفندق في صباح اليوم التالي، رأى ابنَ تلك السيدة الجميلة المجهولة، وهو يتحدّث مع اثنين من الحمّالين الصبية، ويُريهم رسوماتٍ من كتاب «براري الغرب» لـ «كارل ماي». لم تكن الأم معه، ولا بدَّ أنها مشغولة بارتداء ملابسها. نظر البارون الآن، وللمرة الأولى، إلى الطفل. كان ولدًا خجولا عصبيًّا وشقيًّا في سن تناهز الثانية عشرة، ذا حركاتٍ متململةٍ وعينين حزينتين سريعتي الحركة. ومثل كثيرٍ من الأطفال في مثل عمره، يُعطيكَ انطباعًا بأنه مذعور، كما لو أنهم أيقظوه من النوم فجأةً، ثم رَمَوهُ بغتةً في أرضٍ غريبة. لم يكن وجهه قليل الجمال، لكنه مازال غير مكتمل النضج. يبدو أن الصراع بين الرجل والولد سيبدأ عمّا قريب، لكنّ ملامح الولد لم تأخذ شكلا معيّنًا بعد، ولم ترتسمْ على وجهه أيُّ قَسَماتٍ واضحة، لكأنّ وجهه مزيجٌ من القلق والشحوب. بالإضافة إلى أنه كان في تلك السنّ الخرقاء تماما، حين لا يجدُ الأولاد ملابس على مقاسهم، فترى الأكمام والسراويل فضفاضةً حول أذرعهم وسيقانهم. إذ لم يعلّمهم الكبرياءُ بعدُ؛ حكمةَ الاهتمام بالمظهر الخارجي على أحسن صورة.

كان الولد يتجوّل هنا وهناك، حائرًا ومتململا بشكلٍ يثير الشفقة. يعترضُ طريق الجميع، يزعجُ موظفَ الاستقبال بعشرات الأسئلة، فيدفعه جانبًا. ثم يقف عند مدخل الفندق ويتصرف بفظاظة. من الواضح أنه لم يكن لديه أيُّ صديق في هذا المكان، وأنّ حاجته الطفوليّة للثرثرة؛ تدفعه إلى تملُّق موظفي الفندق جميعًا. وقد كانوا يبادلونه الأحاديث حين يجدون الوقت لذلك، ثم يصرفونه عندما يقتربُ شخصٌ راشدٌ أو يكون لديهم ما يقومون به. كان البارونُ يتابعُ الولد التعيس مبتسمًا ومهتمًّا، يشاهده كيف يلاحق الجميع بنظراته، وكيف يتجاهلونه. ومرةً حظيَ هو أيضًا بواحدةٍ من تلك النظرات، لكنّ الطفلَ سحبَ عينيه السوداوين الحائرتين -حالما تفطّن البارونُ إلى أنّهما تحدّقانِ به- وأخفاهما تحت أجفانٍ مسبلة. أُعجبَ البارون بمراوغة الولد، وتساءل إذا ما كان هذا الطفل شديد الحياء، يصلح لأنْ يكون وسيطًا جيّدًا، يمهّد له الطريق الأقصر للوصول إلى أمه. على كل حال، كان الأمر يستحقّ المحاولة، ولذا لاحقَ البارونُ الولدَ خلسةً، فوجده أمام الباب الخارجي مجدّدًا، يداعبُ المنخرين الزهريين لحصانٍ واقفٍ أمام الفندق. لكنْ حتى في هذه اللعبة لم يحالفه الحظّ، إذ أمره صاحبُ العربة أنْ يبتعد عن طريقه. وها قد عاد إلى التسكُّع من جديد، ضجرًا ومجروح الفؤاد، بعينين حزينتين وخاويتين. قال البارون:

«مرحبًا أيها الشاب، هل أنت سعيدٌ هنا؟»

احمرَّ وجهُ الطفل حتى صار بلونِ الشمندر، ونظرَ إلى الأعلى

مندهشًا، ثم أمسك اليد الممدودة إليه بشيءٍ من الخوف، وهو يتمايلُ في مكانه من شدة الحرَج. هذه هي المرةُ الأولى التي يفتتحُ فيها رجلٌ نبيلٌ حديثًا معه.

«إنه جميلٌ جدًّا، شكرًا لك». قال متلعثمًا، وبدَت الكلمتانِ الأخيرتانِ أقربَ إلى صيحاتِ الفرح من الكلام.

«أستغربُ سماعَ ذلك!» أضاف البارون ضاحكًا: «إنه مكانٌ مملّ حقًّا، خاصةً بالنسبة إلى شابّ مثلك. ماذا تفعل طوال النهار؟»

كان الولد مرتبكًا جدًّا، بشكلٍ لا يقدرُ فيه على تقديم إجابةٍ سريعة. هل من المعقول أن هذا الرجل الغريب الأنيق يريدُ التكلُّم معه؟ بينما لم يهتمَّ لأمره أيٌّ أحد؟! شعرَ بالخجلِ وبالفخرِ في آنٍ معًا، ونطقَ بعد جهدٍ كبير:

«أقرأ بعض الكتب، وأخرج في بعض النزهات، وأحيانًا نذهب أنا وماما في نزهةٍ بالعربة. أتيتُ إلى هنا من أجل الاستشفاء، فقد كنتُ مريضًا. ولهذا يجبُ أنْ أجلس تحت أشعة الشمس كثيرًا، هذا ما قاله الطبيب».

نطقَ الجملتين الأخيرتين بدرجة مقبولة من الثقة، إذ غالبًا ما يفتخر الأطفال بالمرض، مُدركين أنّ الخطر سيجعلهم مُهمّين -بشكلٍ مضاعف- بالنسبة إلى بقية أفراد العائلة.

«نعم، الشمسُ مفيدةٌ للشباب مثلك، وقريبًا سأراك مُحْمَرًّا ومُسْمَرًّا. كل شيء هنا على حاله، ولا أريد أن أراك حائرًا طوال

النهار. شابٌّ مثلك، ينبغي أنْ يسير بروحٍ عالية، ويصطاد أكثر من عصفورٍ بحجرٍ واحد. يبدو لي أنكَ مهذّب جدًّا، ودودةُ كتب، آه... ها أنا أرى كتابًا ضخمًا تحت ذراعك! أتذكّرُ كم كنتُ عفريتًا عندما كنتُ في عمرك، أعود إلى البيت كلَّ مساء بسروالٍ ممزّق! لا يجبُ عليك أن تكون مهذّبًا جدًّا، أليسَ كذلك؟»

ابتسم الطفلُ لا إراديًّا، وتبدّدتْ كلُّ مخاوفه. أحبَّ أن يقول شيئًا، لكنّ كلَّ الكلام الذي خطرَ بباله، بَدَا جريئًا ومتخطّيًا الحدود أمام هذا الغريب الودود الذي يخاطبه بلطف بالغ. لم يكن يومًا ذلك الولد المقدام، فلطالما كان غيرَ واثقٍ من نفسه، وها قد أوقعَهُ الفرحُ والخجل في حيرةٍ مخزية. فهو يتوق إلى إكمال الحديث، لكنه لا يجدُ شيئًا يُقال. لحسن الحظ، جاء كلبُ الفندق البنيّ الكبير، وتشمَّمَ كلًّا منهما متملِّقًا بعضَ المداعبات.

«هل تحبُّ الكلاب؟» سأل البارون.

«نعم، لدى جدّتي كلبٌ في منزلها في بادن، وعندما أكون هناك... فإنه يقضي كلَّ وقته معي. لكن ذلك في الصيف فقط، حين نذهب لزيارتهم».

«أما نحنُ فمُجبَرون على أنْ يكون لدينا قرابة العشرين كلبًا، لحراسة الإقطاعيّة التي يقعُ فيها منزلنا. سأخبرك شيئًا... إذا بقيتَ لطيفًا خلال فترة إقامتك هنا، فسأعطيك واحدًا منها. إنه كلبٌ بنيّ ذو أذنين بيضاوين، وصغير السنّ، هل يعجبك ذلك؟»

احمرَّتْ وجنتا الطفلِ فرحًا: «نعم!» انفجرت الكلمة من أعماقه بحماسٍ وحرارة. ثم راودته هواجسُ أخرى، فبدا عليه القلق والحذر.

«لكنّ ماما لن تسمح لي، تقول إنها لا تريد كلبًا في البيت لأنه يجلبُ الكثير من المتاعب».

ابتسمَ البارون، فأخيرًا ذهب الحديث في اتجاه «الماما».

«هل أمكَ قاسية؟»

فكّر الولد في الأمر، ثم رفعَ نظرَه متسائلًا إذا ما كان هذا الغريب النبيل أهلًا للثقة، وأجاب بحذر:

«لا، ماما ليست قاسية. فهي الآن تتركني أفعلُ كلَّ ما أريد لأنني كنتُ مريضًا، وربما ستسمح لي بامتلاك كلب».

«هل أسألُها؟»

«نعم! أرجوك!» صاح الولد سعيدًا. «عندئذٍ أنا واثقٌ من أنها ستسمح لي بذلك. كيف يبدو؟ قلتَ إنّ أذنيه بيضاوان، هل يجلبُ الشيء الذي ترميه له؟»

«نعم، يفعل كل شيء»، ابتسمَ البارون وهو يرى النور الذي أوقدَه في عيني الطفل، فقد زال ارتباكُه وخجله، وصار يطفحُ بالرغبة الملتهبة بدلًا من أنْ يخفيها في وجنتيه الحمراوين. لقد كان تحوُّلًا سريعًا، من طفلٍ خجولٍ مرتبكٍ إلى ولدٍ مرح ونشيط. تمنّى البارونُ -لم يستطعْ كبحَ أفكاره- أن تكون الأمُّ على شاكلة ابنها، مشتعلةً بالرغبة تحت مظهرها الخجول!... لكنّ الولد لم

يتوقف عن طرح الأسئلة:

«ما اسمُ ذلك الكلب؟»

«دياموند».

«ديموند!» صاح الطفلُ فرحًا، لقد كان مستعدًّا لإطلاق صيحةٍ أو ضحكة بعد كل كلمة يسمعها، مبتهجًا بهذا اللقاء غير المتوقّع، وبأنْ يجد شخصًا يريد مصادقته. كان البارونُ أيضًا متفاجئًا بنجاحه الخاطف، فقرّر أنْ يضربَ الحديدَ وهو حامٍ، ودعا الولد إلى الذهاب في نزهة معه. سَحرت الفكرةُ الطفلَ المسكين الذي كان متلهفا لأيّ صحبةٍ ممتعةٍ منذ أسابيع، فراحَ يثرثر دون هوادة، مُزوّدًا صديقه الجديد -ببراءةٍ- بكافة المعلومات التي يريدها، بعد أنْ استخرجها بأسئلةٍ متنوّعة، وأساليب تبدو عفويةً أو على سبيل المصادفة. وخلال فترة وجيزة، عرف البارونُ كلَّ شيء عن العائلة، وأهمُّها أنّ إدغار هو الابنُ الوحيد لمحامٍ من فيينا، ينحدرُ من عائلةٍ يهودية من الطبقة الوسطى الميسُورة. ومن خلال استجوابٍ بالغ البراعة، اكتشف سريعًا أنّ أمَّ الطفل عبَّـرتْ عن عدم سعادتها خلال إقامتها هنا في «سيمرينغ»، فقد اشتكتْ من عدم وجود رفاقٍ مناسبين. واعتقد البارونُ أنه استشفَّ من إجابة إدغار المراوغة، عندما سأله هل كانت أمه تحبُّ أباه، أنّ الأمور لم تكن على ما يُرام بينهما.

شعرَ البارون بالخجل من السهولة التي تحصل بها على كل هذه الأسرار العائلية من الولد الساذج، أما إدغار فقد كان فخورًا لأنّ حديثه يثيرُ اهتمام شخصٍ راشد، وبنيّةٍ طيبة أعطى ثقته الكاملة

لصديقه الجديد. كان قلبه الطفوليّ يخفقُ بالغرور، لأنه يسيرُ أمام الناس بوصفهِ صديقًا لرجُل كبير. كان البارون يضع ذراعه على كتفه طوال الطريق، وبالتدريج نسيَ إدغار أمر طفولته، فصار يتحدّث مع البارون بحرية مطلقة وكأنه ولدٌ من جيله. كان إدغار ذكيًّا جدًّا كما يظهر من كلامه، قُلْ إنه ناضجٌ قبل أوانه، مثل أغلب الأطفال المرضى الذين يُمضون وقتًا طويلًا برفقة الكبار. ومن الواضح أنه عصبيّ وحادّ المزاج، فهو إما أنْ يحبّ بجنونٍ أو أن يكره بحقد. لم يكن عنده موقف معتدل من شيء، فهو يتكلّم عن كلّ شيء إما بشغفٍ أو بكراهية عنيفة تمسخُ ملامح وجهه، وتجعله يبدو شريرًا وقبيحًا. ثمة جموحٌ في داخله يعطي لكلماته نارًا مستعرة، قد يكون بسبب المرض الذي لم يتعافَ منه بعد، وقد يكون الارتباك بسبب خوفه من أنْ يكشف طبيعته العاطفية.

كسبَ البارونُ ثقته بسهولة، فما هي إلا نصفُ ساعة حتى صار القلبُ القلِقُ الملتهبُ، ملك يديه. كم من السهل أنْ تخدع الأطفال، فهم مخلوقاتٌ بريئة لا تجدُ أحدًا يهتمُّ بمشاعرها. كلُّ ما فعله البارون هو أنه عاد بنفسه إلى الماضي، فصار الكلامُ الصبيانيّ يخرج منه بشكلٍ عفوي وفطري، حتى أنّ الطفل قد شعرَ أنه واحدٌ من جيله. وبعد دقائق، تلاشت المسافة بينهما. كان إدغار سعيدًا وممتنًّا بأن يجد صديقًا في هذا المكان المعزول، ويا له من صديق! فجأةً، صار كلُّ رفاقه في فيينا في عداد المنسيين، أولئك الأولاد الصغار ذوو الأصوات الواهية والكلام التافه، واختفتْ معهم صورٌ كاملة لحياةٍ سابقة، فالآن كلُّ

عواطفه الجيّاشة مكرّسة لصديقه الجديد الرائع. انتفخ قلبُ الولد بالغرور عندما اقترح البارون -وهو يودّعه- لقاءً آخر في صباح الغد، ثم لوّحَ لهُ بيده وكأنه أخوه. كانت هذه اللحظة -ربما- الأجملَ في حياة إدغار. كم من السهل أن تخدع الأطفال!

ابتسم البارون وهو يشاهد الطفل يعدو بسرعة. لقد وجد الوسيط، وهو يعلم أنّ الطفل سيُصدّع رأسَ أمّه بقصصه الجديدة، مُكرّرًا على مسامعها كلَّ كلمة. تذكّر البارون أنه أثناء كلامه مع الولد، مرّرَ عدة مدائح ومجاملات موجّهة إلى الأم، إذ وصفها دومًا بـ «أمّ إدغار الجميلة». كان متأكدًا من أنّ الولد الثرثار لن يهدأ له بالٌ حتى يجمع صديقه مع والدته. وليس عليه أنْ يفعل أيّ شيءٍ الآن، كي يعبرُ المسافة بينه وبين الحسناء الغريبة، صارَ بإمكانه أنْ يتأمّل البساتين ويحلم كما يشاء، فهو يعرفُ أنّ هناك يدين طفوليتين متحمّستين تبنيان لهُ جسرًا إلى قلبها.

(3)
الثلاثي

بعد ساعةٍ من دخولها حيّز التنفيذ، أثبتت الخطّةُ أنها مُحكَمة وناجحة، فحين دخل البارون إلى غرفة الطعام متأخّرًا بعض الشيء عن قصد، قفزَ إدغار من كرسيّه وحيَّاهُ بلهفةٍ مع ابتسامة جذلى، ملوّحًا له بيده. وفي الوقت ذاته شدَّ كُمَّ فستانِ أمه، وراح يكلّمها بسرعةٍ وبهجة، مشيرًا بإصبعه نحو البارون. لوَّنَ الحياءُ وجنتيها، فراحتْ تُوبّخ الطفلَ على سلوكه المفرط في الانفعال. لكنها لم تستطع التملّص من إلحاح ابنها، فأرضتْه بالنظر إلى البارون مرة واحدة. استغلّ البارون الفرصة فورًا، ووجَّه إليها إيماءة احترام. ها قد جعلها من معارفه، وصار عليها أنْ تردّ له الإيماءة بمثلها. لكنها بعد ذلك وضعتْ رأسها في صحن الطعام، وحرصَتْ على ألاّ تنظر إليه مرةً أخرى طوال العشاء. أما إدغار -على العكس منها- فقد واصلَ النظر إليه طوال الوقت، وحاول مرةً أن يهتف من طاولته نحو طاولة البارون، لكنّ أمه زجرتْه بقوة. وعندما أنهيا وجبتيهما، تلقّى إدغار الأوامر بأنْ يذهب إلى النوم، ودارَ سجالٌ هامسٌ بينه وبين والدته، كانت نتيجتُه أنْ سمحتْ له بتحقيق رغبته المحتدمة، بالذهاب إلى الطاولة الأخرى ليُسلّم على صديقه. قال البارون بضعة أشياء لطيفة جعلتْ عيني الطفل تتلألآن، وتحدث إليه لعدة

دقائق. ثم بحركةٍ نبيهة منه، نهض واتجه إلى الطاولة الأخرى، مهنئًا قرينته المُحرَجة على ابنها الذكيّ الفطن، متحدّثًا بحرارة عن الصباح الذي أمضاه مسرورًا معه. كان وجه إدغار قرمزيًّا من شدّة الفرح والفخر. وفي النهاية استفسر عن حالة الولد الصحية بالتفصيل، طارحًا العديد من الأسئلة التي ألزمَت الأمَّ بالإجابة عنها. وهكذا انغمسا في محادثةٍ ليست بالقصيرة، كان الولد يستمع إليها بشيءٍ من الرهبة. عرَّف البارون عن نفسه، واعتقد أنّ اسم عائلته ذائع الصيت قد تركَ أثرًا ملموسًا في تكبّر هذه المرأة، فعلى الأقلّ كانت لطيفةً معه بشكلٍ واضح. رغم ذلك -وفي غاية اللباقة- غادرتِ الطاولة من أجل الولد كما أوضحتْ معتذرةً.

اعترض إدغار بشدةٍ قائلًا إنه ليس متعبًا، وهو في الحقيقة مستعدٌّ للسهر طوال الليل. لكنّ أمه مدّتْ يدَها للبارون قبل ذلك، فقبّلها بإجلال.

نام إدغار مضطربًا تلك الليلة، ممتلئًا بمزيجٍ من الفرح والإحباط الطفولي. طرأ تغييرٌ جديد على حياته اليوم، فللمرة الأولى أصبح جزءًا من عالم الكبار. شعرَ -وهو نصف نائم- أنه قد كبر فجأةً، فقبل اليوم لم يكن غير طفلٍ وحيد ومريض، لديه القليل من الأصدقاء، ولم يكن هناك مَنْ يهتمّ بحاجاته العاطفية، باستثناء والديه اللذين يعتنيان به أحيانًا، وكذلك بعض الخدم. دائمًا ما نخطئُ في تقدير قوة الحب، لأننا نقيّمه بأثرِه الحاليّ فقط، لا بالتوتر الذي زالَ عند قدومه. ثمة فضاءٌ مظلمٌ خاوٍ، تملؤه الوحدة واليأس، يسبقُ كلَّ

الأحداث الرائعة في تاريخ القلب. للحبّ طاقاتٌ كامنةٌ عظيمة، تمكثُ في حالة انتظار، ثم تنطلق بذراعين ممدودتين تجاه أوّل شخصٍ يبدو أنه يستحقّها. استلقى إدغار في الظلام، سعيدًا ومضطربًا، أراد أنْ يضحك لكنه لم يستطع سوى البكاء. لقد أحبَّ هذا الرجلَ كما لم يحبّ صديقًا من قبل، وحتى أباه وأمه، بل حتى الله. كلُّ المشاعر التي خبَّأها منذ ولادته، تتشبّث الآن بوجهِ رجلٍ لم يكن يعرف اسمه قبل ساعتين.

لكنه كان نبيهًا بما فيه الكفاية، ولم يترك هذه الصداقة بطبيعتها الفريدة والمفاجئة تقلقه. وما أربكه في الحقيقة هو إحساسُه بأنه لا يستحقها، وشعورُهُ بالدونية. هل أنا طيبٌّ معه بما يكفي؟ تساءلَ معذّبًا روحه، فهو ولدٌ في الثانية عشرة مازال يذهب إلى المدرسة، وها قد أرسلتْه أمه إلى النوم قبل الجميع... ما الذي أعنيه بالنسبة إليه؟ ماذا يمكنني أن أقدم إليه؟... كان عاجزًا عن إيجاد وسائل يعبّر بها عن مشاعره تجاهه، وهذا ما أوجعه أكثر. في العادة، عندما يحبّ ولدًا آخر، فأوّل ما يفعله هو السماح له بمشاركته في الكنوز التي يخبئها في الصندوق؛ طوابع وأحجار ملونة، ممتلكات صبيانية. لكن كل هذه الأشياء التي كانت -حتى الأمس- بالغةَ الأهمية وجذّابة بشكلٍ عجيب، بدَتْ له تافهةً وخرقاء وعديمة القيمة. كيف له أن يقدّم أشياء كهذه إلى صديقه الجديد الذي لا يجرؤ على مناداته باسمه الأول؟ كيف له أن يجد طريقةً أو فرصةً، يعبّر فيها عن مشاعره؟ أحسَّ أكثر فأكثر... كم هو مؤلم أن تكون صغيرًا، نصفَ ناضج، غير

راشد، طفلًا في الثانية عشرة. لم يكره الطفولة بمثل هذه الشدّة من قبل، وكذلك لم يتشوّق بمثل هذا القدر إلى أن يستيقظ ويجد نفسه شخصًا آخر، شخصًا لطالما حلم أن يكونه، طويلًا وقويًّا، رجُلًا! كبيرًا مثل الآخرين.

شقّتْ أحلامه الذهبية الجديدة عن عالم الكبار طريقها بين هذه الهواجس المزعجة، فنام في النهاية مبتسمًا. ثم تذكّر أنه سيلتقي بصديقه -الذي أقضَّ مضجعه- في صباح الغد، فاستيقظ في الساعة السابعة، خائفًا من أن يكون قد تأخر. ارتدى ملابسه بسرعة وذهب إلى غرفة أمه ليقول لها صباح الخير، دُهشتْ برؤيته فهي عادةً ما تبذل جهدًا حتى تتمكن من إيقاظه، ثم ركض نازلًا السلالم وراح يتسكّع في الأسفل بفارغ الصبر. بلغت الساعة التاسعة وهو على هذه الحال، ونسيَ تناول فطوره، إذ كان الأمرُ الوحيد الذي يشغل باله، هو أنه لن يترك صديقه ينتظره قبل ذهابهما معًا في نزهة.

في التاسعة والنصف، جاء البارون متهاديًا في مِشيته. من المؤكد أنه قد نسيَ أمرَ النزهة تمامًا، لكنّ الولد ركض بلهفة نحوه، فابتسم لهذا الحماس، وأظهر أنه جاهز للوفاء بوعده. أخذ بذراع الولد المبتهج وراح يتجوّل معه في بهو الفندق، وبأسلوبٍ يجمعُ بين اللطف والحزم، ألغى فكرة النزهة. يبدو أنه ينتظر أمرًا مّا، أو هذا ما تقوله عيناه المتنقّلتان من باب إلى باب. فجأةً توقّف باستعدادٍ واتّزان، إذ دخلتْ أمّ إدغار مع ابتسامةٍ ورديّة على وجهها. سمعتْ بأمر النزهة المزمعة التي أخفاها إدغار عنها كسرٍّ أغلى من أنْ يُباح به، فابتسمتْ

وقبلتْ دعوة البارون بمرافقتها. تجهّمَ وجهٌ إدغار، وعضَّ على شفته. كم من المزعج أن تأتي في هذا الوقت بالذات! فقد كانت النزهة له وحده، وإذا ما كان قد عرّفَ والدته على صديقه، فهذا دليل على لطفه وكرمه، ولا يعني أبدًا أنه يريد مشاركته معها. امتلأ قلبه غيرةً وهو يرى البارون يتحدّث إليها في غاية الودّ.

وهكذا خرج الثلاثة معًا. وتدريجيًا تلاشى إحساسُ الطفل بالقلق حول أهميته، إذ أبدى الاثنان اهتمامًا واضحًا به، وكان في الحقيقة محورَ الحديث، فمِن جهتها عبّرتْ والدته عن قلقٍ مبالغ فيه إزاء شحوب وجهه، وأعصابه شديدة الحساسية والتوتر. بينما أثنى البارون على سلوك «صديقه» الجديد كما سمّاه. كانت الساعة الأحلى على قلب إدغار، فقد كان له من الحقوق ما لم يحصل عليه طوال سنوات حياته السابقة. إذ كان مسموحًا له المشاركة في الحديث، دون أنْ يُطلب منه السكوت على الفور. وكان مسموحًا له أنْ يعبّر عن كافة أمانيه الجريئة، تلك التي لطالما لقيتْ استقبالًا سيئًا من والديه. ليس من الغريب أنّ شعورهُ الواهم بأنه أصبح كبيرًا، قد تنامى وتضخّم. ممتلئًا بالأحلام السعيدة، صارت الطفولة خلف ظهره، مثل ملابسَ صَغُرتْ عليه، فرماها جانبًا.

عندما جلسوا إلى طاولة الغداء، قبلَ البارون دعوةً لطيفة من والدة إدغار، فانضمّ إلى طاولتهما. ها هم جميعًا الآن على طاولةٍ واحدة، فالمعارفُ قد أصبحوا أصدقاء. كان الثلاثي في قمة الانسجام، إذ تآلفتْ أصواتُ الرجل والمرأة والطفل في نغمٍ عذبٍ واحد.

(4)

إلى الهجوم

أحسّ الصيادُ قليلُ الصبر أنّ الوقت مناسبٌ للاقتراب من فريسته، ولم تعجبْه نغمةُ الصداقة الأليفة التي تبنَّوها، إذ كان الثلاثةُ يتبادلون الحديث بارتياح، لكن -في النهاية- ليس الكلام غايته. إنه يعلم أنّ عامل الصداقة -القناع الذي يُخفي رغبته تحته- يؤجّلُ المواجهة الجنسيّة بين الرجل والمرأة، ويُفقد كلماته الحرارة، ويجرّد سلاحه من النار. لم يكن يريد أن يأخذهما الكلام الودّي، فتنسى هدفه الحقيقي، هدفه الذي أحسَّ أنها قد عرفتْه منذ البداية.

في الغالب لا يتعقّب الصيّادُ فريسةً عبثا، لقد كانت هي في تلك السنّ الحرجة، حين تشعر المرأة بالندم لأنها بقيتْ مخلصةً لزوجٍ لم تحبّه في الحقيقة. عندما يقتربُ جمالُها من الغروب، وتقدّمُ ألوانه المتوهّجة خيارًا حاسمًا وأخيرًا لها، إما الأمومة أو العشق الأنثويّ. في لحظةٍ كهذه، تبدو الحياة التي حسِبتْ أنها اختارتْ مسارَها منذ زمنٍ طويل، مشكوكًا في أمرها كليًّا. فهذه هي الفرصة الأخيرة التي تتأرجحُ فيها الإبرة السحرية لبوصلة الإرادة بين قُطبين؛ إما الاستقالة النهائية أو الأمل بعلاقة حميمية ممتعة. بعد ذلك، تجد المرأة نفسها أمام قرار خطير: هل تعيش حياتها من أجل أطفالها؟ أم من أجلها هي؟!

واعتقد البارون ذو النظرة الثاقبة في هذه الأمور، أنه قد لمح فيها ذاك التردُّد بين التضحية بالذات أو الاشتعال بنار الحياة. لقد تعمّدتْ ألاّ تذكر اسمَ زوجها في أي محادثة، فمن الواضح أنه يُشبع احتياجاتها الخارجية فقط، لا الطموحات الكبيرة التي يُثيرها في داخلها نمطُ حياتها الراقي. يبدو أنه لم يكن للطفل سوى حيّز ضيّق في أعماق نفسها، فآثارُ الضجر تظهرُ على محيّاها، وفي عينيها المعتمتين، وفي هالةِ الكآبة التي تلفُّ حياتها وتقمعُ شهوتها. قرّر البارون أنْ يتحرّك سريعًا، لكنْ دون تسرّع، فتعمَّد أنْ يُظهر عدم مبالاته بهذه الصداقة الجديدة. لقد أراد منها أنْ تتودّد إليه، مع أنه هو مَن يطلبُ الودّ في الحقيقة. خطّط البارون أنْ يُبدي تكبّرًا واثقًا، مُسلّطًا الضوء على الفرقِ في المكانة الاجتماعية بينهما، فقد كان مفتونًا بفكرة أنْ يربح هذا الجسد الجميل الشهيّ ويمتلكه، عن طريق التكبُّر والمظاهر الخارجية فحسب، مُستغلًّا اسمه الأرستقراطيّ ذائع الصيت، وبقلبٍ بارد.

بدأت اللعبةُ العاطفية تثيره وتشدُّه إليها، ولذلك ألزمَ نفسه بتوخّي الحذر. أمضى البارون فترة ما بعد الظهيرة في غرفته، مدركًا أنّ هناك من يريده ويفتقده، مستمتعًا بذلك. على كل حال، لم تشعرْ -وهي الهدفُ والمقصد- بغيابه كثيرًا، على عكس الولد المسكين الذي تجرّع ألوان العذاب. أحسّ إدغار بالضياع والعجز التام، وأمضى الدقائق منتظرًا صديقه بكلّ إخلاص. لم يفكر في الخروج أو في فعلِ أي شيء لوحده، لأنه اعتبرَ أن أشياء كهذه بمثابة الخيانة لصداقتهما. راح يتسكّع بين ممرات الفندق دون وجهة، وكلما طال

الانتظارُ ازداد الحزن في قلبه. أخذه خياله الخصب بعيدًا، فصار يحلم بأنْ يتعرّض لحادثٍ مّا، لإصابة أو جرح، لقد كان على وشك البكاء من شدة الشوق ونفاد الصبر.

وعندما جاء البارون لتناول العشاء في المساء، استقبله استقبالًا حافلًا، متجاهلًا معاتبة أمّه له واندهاش الناظرين. قفز إدغار من مكانه، ركض إلى البارون ورمى بذراعيه حول خصره. «أين كنت؟ أين كنت؟»، صاح بكلماتٍ تتطاير من فمه، «كنّا نبحث عنك في كل مكان»، احمرَّ وجهُ الأم حينما ورّطها بموقفٍ غير مستحبّ، فقالت بحزم: «اهدأ يا إدغار، واجلس». كانت تتكلّم معه دومًا بالفرنسية، مع أنها ليست اللغة التي تخطرُ على لسانها عفويًا، وقد تجدُ نفسها -بسهولةٍ- واقفةً على رمال متحرّكة إذا ما طالت المحادثة أكثر. أطاعَ إدغار أمه، لكنه لم يكفّ عن طرح الأسئلة على البارون. «لا تنسَ» قالت الأم: «أنّ البارون حرٌّ في أنْ يفعل ما يحلو له، ولربما تضجره رفقتنا». هذه المرة أدخلتْ نفسها في الموضوع عن قصد، فسُرَّ البارون بسماعها تصطادُ منه بعض الإطراء، ولو عن طريق توبيخ ابنها.

استيقظ الصيّاد الذي في داخله، كان مبتهجًا لأنه قد وجد الطريق الصحيح بسرعة، ولأن الفريسة قد باتتْ قريبة من مرمى سلاحه. أبرقتْ عيناه وانسابَ الدمُ في عروقه، صارت الكلماتُ تتقافز من شفتيه بحماسٍ استغربه حتى هو. كان -مثلَ كلّ من يملك رغبةً جنسيّة عارِمة- لطيفًا لطفا مضاعفا، متفوّقًا على نفسه تفوقا كبيرا، عندما عرف أنّ المرأة معجبةٌ به. ومثل كثيرٍ من الممثلين

الذين يقدّمون أفضل إبداعاتهم، حينما يستشعرون أنهم قد سَحَروا الجمهور، ويتحسَّسُون أنفاسَ الحضور اللاهثة أمامهم. لطالما كان موهوبًا في سرد القصص، وقادرًا على تحويل كلماته إلى صُورٍ تستقرّ في الأذهان. لكنه اليوم تفوّق على نفسه، وهو يحتسي أقداح الشمبانيا التي طلبها احتفاءً بصداقته الجديدة. كان يروي حكاياتٍ عن رحلات الصيد في الهند، إذ سبقَ له أن حلَّ ضيفًا على صديقٍ إنكليزي أرستقراطيّ، ولم يختر هذا الموضوع اعتباطا، فهو يعلم أنّ كل ما هو عجيبٌ بطبيعته وبعيدٌ عن متناول اليد سيثير اهتمام هذه المرأة. لكنّ المستمع الذي سحرته هذه القصص كثيرًا، كان إدغار الذي تلألأتْ عيناه دهشةً وافتتانًا. لقد نسيَ طعامه وهو يحدّق في الراوي، مُكتفيًا بشُرب الكلمات من شفتيه. لم يحلم يومًا بلقاءِ رجلٍ حيّ قد شهدَ كلّ الأشياء المذهلة التي قرأ عنها في الكتب؛ مغامرات الصيد الكبرى، البشر السُّمر، الهندوس، والقوة الجبّارة للمخلوقات العملاقة التي تدهس الآلاف تحت قدميها. قبل هذا اليوم، لم يكن يصدّق أنّ أشياء كهذه موجودة حقًّا، إذ كان يعرف القليل فقط عن بلاد الحكايات العجيبة. اتّقدتْ في داخله نارٌ عظيمة، ولم يكن يقدر أنْ يرفع عينيه عن صديقه. كان يحدّقُ مكتومَ الأنفاس باليدين اللتين صرعتا نمرًا، وهما الآن أمام عينيه. لم يقاطعْ صديقه بطرح الأسئلة، وحين يسأل فبصوتٍ متحمّس مولَع. استمرَّ خيالُهُ النشِطُ في نسج صورٍ في عينه الداخلية أثناء سماع القصص، فرأى صديقه مُمتطيًا الفيل المغطّى بقماشٍ أحمر، وعن يمينه ويساره رجالٌ سُمرٌ يضعون عمائم جميلةً على رؤوسهم. وفجأةً قفز النمرُ خارجًا من الغابة ومكشّرًا عن أنيابه،

ثم غرز مخالبه في جسم الفيل. بعدها روى البارون قصةً مثيرة عن حيلةٍ ماكرة لاصطياد الفيلة، عن طريق استخدام حيواناتٍ مدجّنة كبيرة السنّ، تقوم بإغراء الأفيال اليافعة النشيطة، وسَحْبها خلفها إلى داخل الأقفاص. أبرقتْ عينا الطفل، ثم أحسَّ بخنجرٍ قد أُشهِرَ في وجهه، حين قالتْ أمه وهي تنظر إلى الوقت: «الساعة التاسعة! هيّا إلى النوم».

فزعَ إدغار وانخطفَ لونه، فالإرسالُ إلى النوم قرارٌ قاهر في نظر الأطفال، وهو يمثّل الإهانة الأكثر شيوعًا عندهم، وخاصةً أمام الآخرين. إنه اعترافٌ بأنهم يحملون لطخة عار الطفولة على جبينهم، وبأنهم صغارٌ ولهم حاجةُ الطفل إلى النوم. لكنّ العارَ المعتاد كان أكثر إيلامًا في هذه اللحظات الرائعة، فهو يعني أنّ إدغار سيفوته سماعُ المزيد من تلك القصص العجيبة.

«قصة واحدة فقط... ماما، دعيني أسمع واحدة أخرى، دعيني أعرف أكثر عن الفيلة».

كان على وشك أنْ يتوسَّل إليها، لكنه تذكَّر منزلته الجديدة بوصفه قد صار شابًا، فتجرّأ على محاولة واحدة فقط، لكنّ أمه كانت شديدة الصرامة هذا اليوم. «لا، لقد تأخّر الوقت. اذهب إلى النوم. كنْ ولدًا طيّبًا يا إدغار، وسأخبرك بكل قصص البارون فيما بعد».

تردّد إدغار، ففي العادة ترافقه أمه إلى السرير، لكنه لن يطلبَ منها ذلك أمام صديقه. أخيرًا، وبكبريائه الطفوليّ، حاول إنقاذَ انتكاستِهِ المحزنة عن طريق تغليفها ببريقٍ من حرية الإرادة:

«حسنًا ماما، إذن يجبُ عليك أنْ تخبريني بكل شيء، كل شيء عن الفيلة والأشياء الأخرى».

«نعم، سأفعل يا عزيزي».

«وفي هذه الليلة! قبل أن تذهبي إلى النوم».

«نعم، نعم. اذهبْ إلى السرير الآن، هيّا اذهب».

أُعجبَ إدغار بنفسه عندما نجحَ في مصافحة البارون وأمّه دون أنْ تحمرَّ وجنتاه، رغم الغصّة التي تكبر في حلقه. داعبَ البارونُ شَعره بلطف، فابتسم إدغار. لكنه اضطُرّ إلى المغادرة سريعًا، قبل أنْ يَريا دمعتين كبيرتين تسيلان على خدّيه.

(5)
الفيلة

بقيت الأم جالسةً مع البارون لبعض الوقت، لكنهما ما عادا يتحدثان عن الصيد والفيلة. فالآن، بعدما غادر الولد، دخلت لمسةُ حرَجٍ ونبرةُ شهوةٍ إلى كلامهما، ثم ذهبا إلى البهو وجلسا في الزاوية. كانَ البارون أكثر بريقًا وتألّقًا عما كان من قبل، وهي أيضًا انتشتْ بعد بضعة كؤوس من الشمبانيا، ولذلك اتخذ الحديث منحى خطيرًا بسرعة. لم يكن البارون شديد الوسامة، لكنه شابٌّ طافحٌ بالذكورة والحيوية، شعره بنيّ قصير ووجهه متقلّب سريع الحركة، أما يداه فلا تكفّان عن المداعبات الحميمة. صارتْ تُسَرّ بمرآهُ عن قرب، وما عادت تخشى نظراته. وبشكلٍ تدريجيّ تتغلغلُ نبرةٌ جريئةٌ في كلامه، فيَسْري الارتباكُ في كيانها. كان كمَنْ يمدُّ يده إلى جسدها، يشعلُه ثم يتركه، وكان الجوّ بأكمله مشحونًا برغبة حارقة، جعلتْ دمها كلَّه يتجمّع في وجنتيها. لكنه ضحكَ من جديد، ضحكته الطفولية العفوية الخفيفة، ما أعطى للجلسة مظهر اللعبة الصبيانية البريئة والسهلة. أحسَّتْ في بعض الأحيان، أنه ينبغي لها أنْ توقفه بكلمة تأنيبٍ فظّة، لكنها تحبّ الغزل بالفطرة، ومعه كانت مفتونةً بتلك التعليقات الملهبة للأحاسيس، فانتظرتْ مزيدًا منها. مسحورةً باللعبة الجريئة، انتهى بها الأمر إلى محاكاته، فراحت تبادله نظراتٍ

متحرّقة ومفعمةً بالوعود، حتى أنها سمحتْ له أن يدنو أكثر، وأحسّت بقرب صوته، وبأنفاسه الحارة تلامس كتفيها. ومثل كل المقامرين، لم يشعرا بمرور الوقت، فقد ضاعا في الكلام الحميميّ حتى أُخفضَتْ أنوارُ البهو عند منتصف الليل، فعادا إلى وعيهما من جديد.

نهضتْ على الفور، مستجيبةً لأوّل إنذارٍ بالخطر، بعدما ذهبت بعيدًا في تلك المجازفة. لم تكن غريرةً على اللعب بالنار، لكنّ غرائزها الملتهبة أخبرتْها كم صار هذا اللعبُ قريبًا من الجدّ. ارتجفتْ فجأةً، وأدركتْ أنها ما عادتْ واثقة من سيطرتها على نفسها، ثمة شيءٌ في داخلها راح يخرج عن السيطرة، ويتجّه بقوة نحو الدوّامة. كان رأسُها ممتلئًا بمزيج مضطرب من الخوف والخمر والكلام الإباحي، شعرتْ بقلقٍ أبكمَ غير مفهوم، ذاك القلق الذي تشعر به -عادةً- في اللحظات الخطيرة كهذه. «ليلة سعيدة، ليلة سعيدة. نلتقي صباح الغد». قالتْها بسرعةٍ وهي على وشك الهرب، ليس منه بل بالأحرى من خطورة اللحظة ومن الاختلال الغريب والمفاجئ لثقتها في نفسها. أخذ البارونُ اليدَ التي امتدّتْ لمصافحته، عصَرَها بقوة خفيفة وقبّلها، لا لمرّة كما هو الأصل، بل لأربع مرات أو خمس، كانت شفتاه المرتعشتان تزحفان من أصابعها الشهية حتى معصمها، دبّت القشعريرة في جسدها حين أحسّتْ بشاربيه الخشنين يدغدغان يدها. ثمة شعورٌ دافئٌ ومرهق تسلّل من يدها وانتشر في عروقها مالئًا جسدها بأكمله. اشتعل كيانها بالرغبة، وراحت مطرقتان

قويتان تضربان صدغيها، كان رأسها يحترق، والخوف -الذي لا معنى له- يراودها ثانيةً. سحبت يدها بسرعة.

«آه، ابقي قليلا.» همس البارون. لكنها أسرعت بالخروج. وبعُجالة خرقاء فضحتْ خوفها وارتباكها. الإثارة التي أيقظها البارونُ فيها، ملأتها بالفعل، لقد أحسَّتْ أنّ كلَّ ما فيها مقلوبٌ رأسًا على عقب. كانت تسرعُ مدفوعةً بخوفٍ محتدم من الرجل الذي خلفها، فقد يتبعها ويمسك بها. لكنها نجحتْ في الهرب، فشعرتْ بالأسف لأنه لم يفعل. في تلك اللحظة، كلُّ ما كانت تتوق إليه -في لا وعيها- على مرّ السنوات، كان على وشك التحقيق، والمغامرة التي لطالما اشتهتْها باتتْ في متناول اليد، لكنها اجتنبتْها عند حلولها. إنها علاقة حقيقية وخطيرة، لا مجرد مداعبات سطحية. كان البارون مغرورًا إلى درجةٍ لا تسمح له بأن يلحقها، أو يستغلّ لحظة كهذه. لقد كان واثقًا من النصر، ولن ينقضّ على امرأةٍ في حالة ضعف وهي سكرى. فهو يحبّ اللعب النظيف، ويستمتع بالمطاردة وبفكرة أنْ تستسلم له وهي في كامل وعيها. يبدو أنها لن تفلتَ منه، فالسُّم القاتل -كما يرى- بدأ يسري في عروقها.

توقفتْ عند نهاية السلالم، واضعةً يدها على قلبها الشديد الخفقان. كان عليها أن ترتاح للحظة، فأعصابها على وشك الانهيار. أطلقتْ تنهيدةً من صدرها، نصفُها ارتياحٌ لأنها هربتْ من الخطر، ونصفُها ندمٌ لأنها فعلت ذلك. وكلا الحالتين كانتا مربكتين، أحسَّتْ بفوَران دمها وبدُوَار في الرأس. تلمّستْ طريقها -بعينين نصف

مغمضتين- إلى باب غرفتها كالثملة، وأطلقت تنهيدةً أخرى حين أمسكتْ مقبض الباب البارد، فالآن -على الأقل- هي في أمان.

فتحتْ باب غرفتها بهدوء، وبعد لحظةٍ ارتدّتْ مرتعبة. ثمة شيءٌ مّا أو أكثر يتحرّك في الداخل، في صدر الغرفة، هناك في الظلام. انشدّتْ أعصابها المنهكة، وكادت تصرخ طلبًا للنجدة، حين سمعتْ صوتًا يغلُبه النعاسُ يتمتمُ ببرود: «هذه أنتِ يا ماما؟»

«كُرمى لله! ماذا تفعل هنا؟!» أسرعتْ صوب الأريكة حيث يجلس إدغار ملتفًّا على نفسه مثل الكرة. حسِبتْ للوهلة الأولى أنّ الطفل مريض حتمًا، أو يحتاج إلى مساعدة. لكن إدغار المستيقظ منذ لحظات، قال بنبرة عتاب: «انتظرتكِ طويلًا، ثم غفوت».

«لكن لماذا؟»

«من أجل الفيلة».

«أيُّ فيلة؟!»

الآن فقط فهمتْ، لقد وعدت الطفل بأنْ تحدّثه عنها في آخر الليل، وعن الصيد والمغامرات. وقد تسلّل الولد إلى غرفتها، ببراءة وسذاجة، منتظرًا عودتها بثقة تامّةٍ إلى أنْ غلبه النوم. لقد جعلها سلوكُهُ المتهوّر تغضب، مع أنها شعرتْ بحزنٍ في داخلها، وسمعتْ دمدمة الذنب آتية من قلبها، فصرختْ: «اذهبْ إلى النوم أيها الولد الشقي». حدّق فيها إدغار مشدوهًا، لماذا هي غاضبة منه إلى هذا الحد، مع أنه لم يرتكب أي خطأ؟ لكنّ انشداهه جعل الأمّ الغاضبة

أصلًا تغضبُ أكثر: «عُدْ إلى غرفتك حالا.» صاحت وهي ترتجف، لأنها أحسَّت بأنها قد ظلمته. ذهب إدغار دون أن يقول أي كلمة، إذ كان متعبًا جدًّا. لقد عرف -بشكلٍ غامضٍ- وسطَ غشاوة النعاس التي تملأ عينيه، أنّ أمّه لم تفِ بوعدها، وأنه تعرّض إلى إساءةٍ منها، لكنه لم يعترض. كلُّ ما في داخله أسكتَهُ الإرهاق، ثم غضبَ من نفسه لأنه صعد إلى الأعلى لينام، بدلًا من أن يبقى ساهرا في الأسفل.

«مثلَ طفلٍ صغير!» قالها لنفسه ساخطًا، قبل أن يخلد إلى النوم من جديد، فقد صار منذ البارحة يكرُهُ كونه طفلًا.

(6)
مُناوَشة

لم يستطع البارونُ النوم بسلام، فمن المحزن أنْ تذهب إلى السرير بعد مغامرة غير منجزة. كان ليلُه مضطربًا، ممتلئًا بالأحلام الشهوانية، وصار يشعر بالندم لأنه لم ينتهزْ تلك الفرصة. عندما نزل إلى الأسفل في صباح اليوم التالي، ناعسا وبمزاجٍ مستاء، ركض الولد إليه مباشرةً، وعانقه عناقًا حميمًا، وراح يثقلُ رأسَهُ بسيلٍ من الأسئلة. كان الولد سعيدًا بأنْ يكسب صديقه العظيم لوحده ولو لدقائق، دون أنْ يشاركَهُ مع أمه. إذ يجب على صديقه أنْ يروي له الحكايات، له وحده، لا لأمه بعد الآن، فهي على الرغم من وعدها له، لم تخبره بشيءٍ من تلك الحكايات العجيبة. راح الولد يحاصر البارون المغتاظ والمتبرّم -والذي لم يستطعْ إخفاء مزاجه المعتلّ- بمئاتِ الطلبات الصبيانية. فوق ذلك، كان يمزج تلك الأسئلة بتأكيداتٍ جادّة عن حبّه له، وعن سعادته بأنْ يكون لوحده مع صديقه الذي كان يبحث عنه منذ زمنٍ طويل، وينتظر لقاءه منذ الفجر.

أجابَ البارونُ بأسلوبٍ فظّ، فقد بدأ يتململُ من طريقة الطفل في انتظاره واعتراض طريقه، ومن أسئلته السخيفة وعاطفته غير المرغوب فيها بشكلٍ عام. لقد سئمَ من صحبة طفلٍ في الثانية عشرة،

سواءً في داخل الفندق أو خارجه، ومن أحاديثهما التافهة. كل ما يريده الآن هو أنْ يضربَ الحديد وهو حامٍ، أنْ يختلي بالأمّ لوحدها، ولهذا فقد كان حضورُ الطفل البغيض مشكلةً حقيقية. لأوّل مرةٍ يشعرُ بالنفور من الحبّ الذي أشعلَه -سهوًا- في قلب الطفل، فهو لا يجدُ طريقةً للتخلُّص من صديقه الصغير المخلص أشدّ الإخلاص.

على كل حال، لا بدّ من محاولةٍ مّا. ترك البارونُ كلامَ الولد المتلهّف ينصبُّ عليه دون مبالاة حتى الساعة العاشرة، وهو الوقت الذي رتّب فيه للخروج في نزهة مع والدة الطفل، عن طريق رميِ كلمةٍ في الحديث بين الفينة والأخرى، بشكلٍ لا يجرحُ مشاعرَ إدغار، متظاهرًا في ذلك الوقت بأنه يتصفّح الجريدة. وفي النهاية، حين اقتربت عقارب الساعة من الوصول إلى العاشرة، تظاهر بأنه تذكّر أمرًا مهمًّا فجأةً، وطلب من إدغار أنْ يذهبَ إلى الفندق الآخر، لكي يسألهم إذا ما وصل والدُهُ الكونت غروندهايم أم لا.

دون أيّ شكوك، ابتهجَ الطفلُ لأنه أخيرًا، سيقدّم خدمةً لصديقه، فركضَ في الحال، فخورًا بوظيفته الجديدة كمِرْسال. كان مسرعًا إلى درجة أن الناس صاروا يبتعدون عن طريقه وينظرون إليه، ومتشوّقًا إلى أنْ يُثبتَ نباهته عندما تُوكَل مهمة إليه. «لا»، أخبروه في الفندق الآخر، «لم يصل الكونت. كما أننا لا نعلم بقدومه». عاد حاملًا رسالة الردّ بالسرعة ذاتها، لكنه لم يجد البارون في بهو الفندق، فصعد إلى غرفته وطرق الباب، لكن أيضًا دون جدوى. بحثَ عنه في كل الصالات: حُجرة الموسيقى، المقهى، ثم انصرف للبحث عن أمه لكي

يسألها إنْ كانت تعرف شيئًا، لكنه لم يجدها. وفي النهاية قادَهُ الإحباطُ إلى أنْ يسأل البوّاب، فأخبره أنهما قد غادرا الفندق معًا قبل دقائق!

انتظرَ إدغار بفارغ الصبر، فهو لم يتوقّعْ -لشدّة براءته- أيَّ تصرّفٍ غير بريء. كان واثقًا من أنهما لن يتأخّرا، لأنّ البارون ينتظر جوابًا لرسالته. على الرغم من ذلك، تابعَ الوقتُ زحفه، ساعةً تلو الأخرى، فتسلّل القلقُ والسأم خلسةً إلى ذهنه. وإلى جانب ذلك، منذ اليوم الذي دخل فيه ذاك الغريبُ المغري إلى حياته الصغيرة البريئة، ظلَّ الطفلُ في حالة توتّر دائم، منفعلًا ومرتبكًا طوال الوقت. بإمكانِ أيّ شعورٍ أنْ يتركِ ندبةً على جسد الأطفال الغضّ، كمثل مَنْ يدمغُ صورةً على شمعٍ ذائب. بدأتْ أجفانُ إدغار ترفُّ من حدّة التوتر، وراحَ وجهه يصفَرّ. لقد انتظر وانتظر، هادئًا في البداية ثم في حالة غضبٍ مستعر، إلى أنْ بلغَ في النهاية حدود البكاء. لكنه لم يشكّك في أي شيء، لقد جعلَهُ إخلاصُه الأعمى لصديقه الرائع يفترض أنّ هناك سوءَ تفاهمٍ مّا، ثم تملّكُه خوفٌ موجِعٌ من أنْ يكون قد أساءَ فهم رسالة البارون.

أما ما كان غريبًا أشدَّ الغرابة، فهو أنه حين عادا أخيرًا، وهما يسيران بمرحٍ ويتحدّثان بسرور، لم يُدهَشا برؤيته، كما لو أنهما لم يشتاقا إليه أبدًا. «عُدنا من هذا الطريق على أملِ أنْ نلتقي بكَ يا إدغار»، قال البارون دون أن يسأل عن الرسالة. حينها ارتعبَ الطفلُ من فكرة أنهما كانا يبحثان عنه في الخارج، وراحَ يؤكّد لهما أنه عاد مباشرةً من الفندق إلى هنا، عبْرَ الطريق العام نفسه. ثم سألهما عن الطريق الذي

سلكَاه بدلًا من ذاك، لكنّ والدته قطعت المحادثة بسرعة: «حسنًا.. حسنًا، ينبغي للأطفال ألاّ يتكلّموا كثيرًا».

احمرَّ وجه إدغار من القهر، لقد كانت هذه محاولتها اللئيمة الثانية لتصغيره والتقليل من شأنه. لماذا تفعل ذلك؟ لماذا تحاول دائمًا أنْ تجعله يبدو كطفل، بينما هو يعلم تمامًا أنه لم يعد كذلك؟ لا بدّ من أنها تحسُدُه على صديقه، وتخطّط لأنْ تسحبَ البارون إلى جانبها. نعم، لقد كان متأكدًا من أنّ والدته هي من خدعت البارون وانحرفتْ به عن قصد. على كل حال، لن يسمح لها بأن تعامله بهذه الطريقة، ولسوف ترى عما قريبٍ كيف سيتحدّاها ويعارضُ أوامرها. قرّر إدغار ألاّ يتحدّث معها ولو بأيّ كلمة أثناء العشاء، وأنْ يكون حديثه موجّهًا إلى صديقه فقط.

لكنّ الأمور لم تسِرْ كما أراد، فقد حدثَ آخرُ ما كان يتوقعه، إذ لم ينتبه أحدٌ منهما لهذا التحدّي. حتى أنهما ما عادا يريانِ إدغار بعدما كان محورَ الحديث ليلة الأمس. كان الاثنان يتحدثان من فوق رأسه، يمزحان ويضحكان معًا، كما لو أنه قد اختفى تحت الطاولة. صعدَ الدمُ إلى وجنتيه، وكادت غصّةٌ في حلقه أن تخنقه. أحسَّ -وجسدُهُ يرتجف- كم هو عاجزٌ وبائس، هل يكتفي بالجلوس والمشاهدة... وأمّه تسرقُ صديقه أمام عينيه؟ تسرقُ الشخص الوحيد الذي أحبّه! هل يبقى عاجزًا عن الدفاع عن نفسه إلا عن طريق الصمت؟ تمنّى لو يقفُ فجأةً ويضرب الطاولة بكلتا يديه، فقط لكي يلحَظَا وجوده، لكنه أبقى نفسَه متوازنًا، واكتفى بوضع الشوكة والسكين

جانبًا، ولم يتناولْ أي لقمة. ومع ذلك فقد تجاهلا رفضه المتعنّت للطعام وقتًا طويلًا، واستمرَّ الأمرُ قرابة ساعة، حتى لاحظتْ أمه وسألتْه إذا ما كان شيء يؤلمه. كم هذا مريع! -أحسّ إدغار- إنها دائمًا تفكّر في الشيء نفسه، وتسأل إذا ما كنتُ موجوعًا، ولا شيء آخر يعنيها. أجابها باختصار، قائلًا إنه لا يريد أنْ يأكل بعد الآن، وبدَتْ وكأنها راضيةٌ عن ذلك. لم يكن في يده أيُّ حيلة، أبدًا.. أبدًا.. لكي يجذب الانتباه إليه. يبدو أنّ البارون قد نسيَه، أو على الأقل فهو لم يتحدث معه بأي كلمة. احترقتْ عيناه أكثرَ وأكثر، وصلتا إلى نقطةٍ ما عاد بإمكانه فيها السيطرةُ عليهما، فصار مُجبرًا على أنْ يلوذ بالخدعة الطفولية المعتادة، إذ رفع المنديل إلى وجهه قبل أنْ يرى أحدٌ الدموع التي تدلفُ على خدّيه، وتتركُ نداوةً مالحة على شفتيه.

أثناء العشاء، اقترحتْ أمّه رحلةً بالعربة إلى قرية «ماريا شوتس». سمعَها إدغار وهو يعضّ على شفته، يبدو أنها لنْ تتركه مع صديقه لوحدهما ولو لدقيقةٍ واحدةٍ بعد الآن! لكن، لم ترتفع الضغينةُ في قلبه إلى درجة الغضب الشديد إلا عندما قالتْ له، وهم ينهضون عن طاولة الطعام: «إدغار، أرى أنك قد نسيتَ كلَّ ما يتعلّق بواجباتك المدرسية، من الأفضل أنْ تبقى في الفندق وتدرس بعض الشيء». مرةً أخرى انكمشتْ قبضتُه الصغيرة، كانت تحاول دومًا أنْ تُهينه أمام صديقه، مذكّرةً الجميع بشكلٍ علَني أنه مازال طفلًا، وأنّ عليه الذهاب إلى المدرسة، وأنه غير مسموحٍ له -وغير مرغوبٍ فيه- أنْ يرافق الكبار. لكنه كان شفافًا هذه المرة جدًّا، وكلُّ ما في قلبه يظهر

على وجهه، فلم يجب بكلمة، فقط أدارَ ظهره لهما.

«يا عزيزي، لقد جرحتُ مشاعرك مرة أخرى!» قالتْها وهي تبتسم، وأضافتْ موجهةً الكلام إلى البارون: «هل سيضرُّ نفسَه كثيرًا إذا درسَ لمدة ساعة أو ساعتين في اليوم؟»

بعد ذلك، تجمّدَ قلبُ الطفل عندما أكّد البارون -الذي اعتبرَ نفسَه صديقه، ومازحه، وسمّاهُ دودة الكتب- موافقته على رأيها: «بالتأكيد... ساعة أو ساعتان من الدراسة لن تضرّه».

هل هذه مؤامرة؟ هل يتحالف الطرفان ضدّه؟ اشتعلتْ عينا الطفل غضبًا. «لكنّ بابا قال إنه ليس عليّ أنْ أدرس هنا، يريدني بابا أنْ أتعافى هنا». نظرَ إليهما بكلّ غرور الطفل المريض، متشبّثًا بسُلطة والده. لقد كان كلامه أشبَه بالتهديد، والغريبُ في الأمر أنّهما ارتبكا بشكلٍ واضح. نظرت الأم إلى البعيد، وراحتْ تنقر بأصابعها المتوترة على الطاولة، ثم عمَّ صمتٌ موجِع. «كما تريد يا إدغار» أجابَ البارون أخيرًا، مجبرًا نفسه على تصنّع الابتسامة: «على كل حال، أنا ليس لدي امتحاناتٌ لكي أدرس لها، لقد رسبتُ في كلّ امتحاناتي منذ زمنٍ بعيد».

لكن إدغار لم يبتسم لهذه النكتة، بل راح يتفحّصُه بنظرةٍ متلهّفةٍ وثاقبة، كما لو أنه يستبطنُ روحه. ما الذي يجري؟ لقد تغيّر شيءٌ مّا بين الاثنين، لكنّ الطفل لم يفهم ما حدث. كانت عيناه تتنقّلان بينهما باستمرار، وفي أعماق قلبه، ثمة مطرقةُ حِدادةٍ صغيرة بدأتْ بالعمل، تضربُ بقوّةٍ لتصُوغ الشكّ الأول.

(7)

السرّ الحارق

ما الذي غيّرهما كل هذا التغيير؟ تساءل الطفل وهو يجلس على المقعد المقابل لهما في العربة التي تمضي بهم. لماذا لا يتصرّفان معي كما كانا يتصرفان من قبل؟ لماذا تتهرّب أمي من عينيّ كلما نظرتُ إليها؟ ولماذا يحاول البارون أنْ يتصنّع النكات ويُهرّج بهذا الشكل؟ حتى أنهما لا يتحدثان إليّ كما فعلا البارحة وقبل البارحة، يبدو لي كما لو أنهما يلبسان وجهين جديدين. أرى شفتي أمي حمراوين كثيرًا هذا اليوم، لا بدّ من أنها قد لوّنتْهما، لم أرَها تفعل ذلك من قبل. هو الآخرُ عابسُ الوجه كما لو أنني قد آذيته، لكنني لم أفعل شيئًا لهما، ولم أقلْ كلمة قد تسبّب الإزعاج. هل فعلتُ؟ لا، لا يمكن أنْ أكون أنا السبب، لأنهما يتصرفان بطريقة غريبة مع بعضهما كذلك. لم يعودا كما كانا من قبل، يبدو الأمرُ كما لو أنهما فعلا شيئًا مّا، ولا يريدان الكلام عنه. فهُما لا يدردشان مثل البارحة، ولا يضحكان حتى، إنهما مُحرجان ويخفيان أمرًا مّا بينهما، سرًّا مّا، ولا يريدان الإفصاح عنه أمامي. إنه سرّ، ويجب عليّ اكتشافه مهما كلّف الثمن. أعرف أنه من ذلك النوع من الأسرار التي تجعل الناس يطلبون مني الخروج من الغرفة، إنه من النوعِ الذي تدور حوله كل الكتب، وكذلك الأوبراتُ حين يغني رجلٌ وامرأة معًا بذراعين مفتوحتين،

ويتعانقان، ثم يدفع كلٌّ منهما الآخر. بطريقةٍ أو بأخرى، لا بدّ من أنه نفسُ السرّ المتعلّق بخادمتنا الفرنسية، تلك التي فعلتْ شيئًا معيبًا مع أبي، فقُمنا بطردها. كلُّ هذه الأمور مرتبطة ببعضها، أحسُّ بذلك، لكنني لا أعرف كيف. آه... أتمنى لو أعرف السر، أتمنى لو أفهمه، أتمنى لو أملك المفتاح الذي يفتح كل الأبواب، فأنا لم أعدْ طفلًا بعد الآن حتى يُخفي الناسُ الأشياء عني، أو يمثّلوا علي. أتمنى ألّا أبقى مخدوعًا، وألّا يظلّوا يتهرّبون مني بتقديم الأعذار. إذا لم أعرف الآن فلن أعرف أبدًا! ولسوف أستخرج ذلك السرّ البغيض من جوفهما.

ارتسمتْ خطوطٌ عميقةٌ على جبينه، وبدا الطفلُ ذو الاثنتي عشرة سنة رجلًا عجوزًا وهو يجلس ممعنًا في التفكير، دون أنْ يلقي بنظرةٍ إلى المناظر الطبيعية المنسابة بألوانها البراقة من حوله، الجبال المغطاة بالخضرة النقية لأشجار الصنوبر، الوديان التي مازالت طفلةً في مقتبَلِ التفتُّح والإزهار، بعدما تأخّر الربيع العذب هذه السنة. كلُّ ما رآهُ هو الزوجان اللذان يجلسان قبالته على مقعد العربة الخلفي، كما لو أنّ نظراته الحادة، الأشبَهَ بخيطِ صنّارة الصيد، ستستلُّ السرَّ من غياهب عيونهما. لا شيء يشحذ الذكاء أكثر من الشكّ المتحرّق، ولا شيء ينمّي مَلَكات العقل الفتيّ أكثر من طريقٍ يمضي فيه نحو المجهول. وفي بعض الأحيان، مجرّدُ بابٍ واهٍ فقط؛ يمنعُ الأطفال من الدخول إلى ما نسميه العالم الحقيقي، بابٍ قد تفتحُه لهم هبّةُ ريحٍ مفاجئة.

فجأةً، أحسّ إدغار أن السرّ المجهول، السر العظيم، باتَ أقرب

إليه من أي يوم مضى، في متناول اليد تقريبًا. أحسّ أنه موجود أمامه، رغم أنه مازال مُقفلًا عليه ومتعذِّرَ الحلّ، لكنه قريب جدًّا بكل تأكيد. أثاره الإحساسُ وأعطاه جاذبية مهيبة، فقد خمّن -دون وعي- أنه يقترب من نهاية مرحلة الطفولة.

شعرَ الزوجان الجالسان قبالته بنوعٍ من التمنُّع الصامت تجاه بعضهما البعض، دون أنْ يحزرا أن الولَد هو السبب. شعرا أنهما مُكرهان ومكبوتان أثناء رحلة الثلاثة في العربة، فقد كانت العينان اللتان أمامهما، بضوئهما البرّاق والمعتم، عقبةً حقيقية بين الزوجين الكبيرين. بالكاد تجرّآ على الكلام، وبشقّ الأنفس على النظر إلى بعضهما. لم يجدا أيّ سبيلٍ للعودة إلى أحاديثهما الخفيفة الظريفة، يومَ ذهبا بعيدًا، ووقعا في فخّ الكلام الحميميّ الحارق، في الكلمات الخطيرة بشهوتها المخاتلة، والمتحوّلة إلى رعشاتٍ أثناء اللمسات السرية. كانت كلُّ محاولةٍ للكلام بينهما تصلُ إلى طريق مسدود، إلى هاويةٍ من التردّد. تتعثّر، تنهض من جديد، ثم تترنّح أمام صمت الطفل الدائب.

كان هذا الصمتُ الثقيل أكبر من قدرة الأم على احتماله، نظرتْ إلى البارون بطرفِ عينها بحذر، وعندما زمَّ الطفل شفتيه جفلتْ منه، فلأول مرة، يلبسُ الطفلُ وجهَ أبيه عندما يكون مستاءً أو غاضبًا. كم كان من المزعج لها أنْ تتذكّر زوجها في لحظةٍ كهذه، وهي تتهيّأ لدخول المغامرة، للعبة الاختباء. بدا الطفلُ في نظرها مثل شبحٍ، مثل حارسٍ أرسلَه الضمير، لا يمكن تحمّله أبدًا في هذه العربة الضيقة،

يجلس أمامها بعينيه اليقظتين، تبرقان بضوءٍ أسود تحت جبينه الشاحب. رفع إدغار رأسه فجأةً، لمدة ثانية فقط، فأخفضَ كلٌّ منهما نظره إلى الأرض على الفور. أحسَّتْ لأول مرة في حياتها، أنهما -الأم والطفل- يراقبان بعضهما بحذر. فقبل اليوم، وثِقَ كلٌّ منهما في الآخر ثقةً عمياء، لكنّ شيئًا مّا راحَ يتغيّر، فلأول مرةٍ يقوم كلٌّ منهما بمراقبة الآخر، ويفصلُ حياته عن حياة الآخر. بدأ كلٌّ منهما يشعر بكراهية مخفيّة تجاه الآخر، لكنها مازالت جديدة جدًّا، أكثرَ من أنْ يجرؤا على الاعتراف بها.

تنفّس الثلاثة الصعداء عندما توقف الحصانان أمام الفندق، أحسَّ الثلاثة أنّ النزهة كانت فاشلة، لكنّ أحدًا منهم لم يجرؤ على البوح بذلك. قفز إدغار أولًا، ثم اعتذرت الأم مدّعيةً أنها مصابة بصداع في الرأس، وصعدتْ مُسرعةً إلى الأعلى، إذ كانت متعبةً وتفضّل البقاء وحيدة. بقيَ إدغار والبارون وحدهما هناك، دفع البارون أجرة العربة للحوذي، نظر إلى ساعته، ودخل إلى بهو الفندق متجاهلًا الولد. عبرَ من أمام إدغار تاركًا له ظهره النحيل الأنيق، وسارَ بمشيته الرشيقة المتناغمة التي طالما سحرت الولد كثيرًا، حتى أنه حاول أنْ يقلّدها في الأمس. وهكذا مرَّ البارون أمام إدغار ببساطة، وكأنه قد نسيَه تمامًا، تاركًا إياه مع الحوذي والحصانين كما لو أنّه لا رابطةَ تربط بينهما.

انشطرَ قلبُ إدغار إلى نصفين وهو يرى البارون يعبر من أمامه بهذه الطريقة، فهو الرجل الذي -رغم كلّ شيء- مازال معبوده

ومثاله الأعلى. ملأت الخيبة قلبه حين غادر البارون دون أنْ ينبس ببنتِ شفة، دون أن يلامسه حتى بمعطفه، فهو يعلم أنه لم يرتكب أيّ غلط. حالةُ ضبط النفس التي حافظ عليها بشقّ الأنفس، تهاوت في النهاية، وانزلقَ الحِمْل الثقيلُ لكرامته المصطنعة من كتفيه الضيّقتين. لقد عاد طفلًا مرة أخرى، صغيرًا ووضيعًا كما كان البارحة ولوقتٍ طويل قبل ذلك. أُجبرَ رغمًا عن إرادته أنْ يتبع البارون بخطًى متسارعة وقلقة، ثم اعترَض طريقه حين كان يهمُّ بصعود السلالم، وقال بصوتٍ متوترٍ محاولًا جاهدًا إمساك دموعه:

«ماذا فعلتُ لك؟ لم تعدْ تراني أو تنتبه لي أبدًا! لماذا تتصرّف معي بهذه الطريقة؟ وأمي كذلك! لماذا تحاولان دائمًا التخلُّص مني؟ هل أقفُ في طريقكما؟ هل ارتكبتُ خطأً مّا؟ أم ماذا؟»

دُهش البارون مما سمع، ثمة نبرةٌ في الصوت أربكَتْه وجعلتْ قلبه يرقّ، فغلبَه الإحساسُ بالشفقة على الولد البريء: «أووو... إدغار، أنتَ أبله! لقد كنتُ سيّء المزاجِ هذا اليوم، وهذا كلُّ ما في الأمر. وأنتَ ولد طيب، إني أحبك حقًّا». كان يعبثُ بشعر الولد أثناء كلامه، لكنْ بوجهٍ مائلٍ عنه بعض الشيء، لكي يتجنّب رؤية العينين الطفوليتين المتضرّعتين بدمعتين كبيرتين. لقد بدأ يشعرُ بالحرج من هذه التمثيلية، وبالعار لأنه يستغلُّ حبَّ الطفل لهُ دون رحمة. كان لذلك الصوت الطفولي الحزين، المقطَّع بشهقاتٍ مكتومة، أنْ يؤلمه نفسيًّا وجسديًّا.

«الآن اصعدْ إلى الأعلى يا إدغار، سنلتقي في المساء، ونعود

أصدقاء من جديد. انتظرْ وسترى». قالها بنبرةٍ مُهدِّئة.

«لكنكَ لنْ تدعَ أمي ترسلني إلى النوم، أليس كذلك؟»

«لا لا يا إدغار، لن أدعها». ابتسم البارون: «اصعد الآن، يجب أن أغيّر ملابسي من أجل العشاء».

صعد إدغار سعيدًا للوهلة الأولى، لكنّ المطرقة الصغيرة في قلبه عادت للعمل من جديد. لقد كبُر عدة سنواتٍ منذ البارحة إلى اليوم، وانعدامُ الثقة الذي كان أمرًا مجهولًا بالنسبة إليه، اتخذَ لنفسه مسْكنًا في صدره الصغير.

قرّر الانتظار، فهو الاختبار الوحيد الذي يكشف الحقيقة. جلسوا على الطاولة معًا، دقّت الساعةُ معلنةً التاسعة ليلًا، لكنّ أمه لم ترسلْه إلى النوم بعد. بدأ يشعر بالقلق، لماذا تتركه ساهرًا لوقتٍ متأخّرٍ هذا اليوم، بينما كانت من قبلُ حازمةً جدًّا بهذا الخصوص؟ هل أخبرها البارونُ برغبته تلك؟ هل أخبرها بكامل المحادثة التي جرتْ بينهما؟ تملّكُه إحساسٌ مفاجئ بالندم المرير، لأنه لاحقَ البارون هذا اليوم بقلبٍ مُفعمٍ بالثقة. عند حلول الساعة العاشرة، نهضتْ أمه من على الطاولة وتمنّتْ للبارون ليلة سعيدة. والغريب أنّ البارون لم يتفاجأْ أبدًا بذهابها المبكّر، ولم يحاولْ إقناعها بالبقاء كما يفعل عادةً. مازالت المطرقة في قلب الطفل تعمل وتعمل.

أثناء حضورهما، تظاهر أنه لا يشكّك في أيّ شيء، فتبع والدته باتجاه الباب دون تردّد. وهناك عند الباب، وفي التوقيت المناسب،

رفعَ رأسه إلى الأعلى بغتةً، ليكشفها وهي تبتسم للبارون من فوق رأسه. لقد كانت ابتسامة تواطؤ، ابتسامة اشتراكٍ في سرّ مّا. هذا يعني أنّ البارون قد وَشَى به بالفعل. ولهذا صعدتْ إلى الغرفة باكرًا، كانا يريدانه أنْ يشعر بالأمان اليوم، ويهزّان له السرير حتى ينام. لكيلا يعترض طريقهما مجدّدًا يوم الغد.

«خنزير!» تمتمَ الولد.

«ماذا قلت؟» سألت الأم.

«لا شيء» قالها من بين أسنانه.

الآن صار لديه سرٌّ خاصٌّ به، اسمه الكراهية، الكراهية المطلقة لكليهما معًا.

(8)

صمت

لم يعد إدغار قلقًا ومشوّشًا، فعلى الأقلّ صار يتلذّذ بشعور الكراهية المصفّى النقيّ، وبالحقد المطلق. وبعدما تأكّد أنه العقبة التي تقف في طريقهما، سيغدو بقاؤه معهما متعةً مزدوجة ورهيبة. كان مسرورًا ومتحمّسًا لفكرة تخريب مخططاتهما، ولأنْ يجمع كل القوى المكثّفة لكراهيته وعدائه ويُلقيها عليهما دفعةً واحدة. لقد كشر عن أنيابه للبارون أولًا، حينما نزل النبيل إلى الأسفل في الصباح وحيّاه بحرارة: «مرحبًا يا إدغار!»، بقيَ إدغار في مكانه، جالسًا على الكرسيّ، ثم نخرَ بصوتٍ جافّ: «صباحك»، دون أن ينظر إليه.

«هل نزلتْ أمكَ أم ليس بعد؟»

كان إدغار منشغلا بتصفّح الجريدة: «لا أعرف».

تراجع البارون خطوة إلى الوراء، ما الذي تغيّر فجأة؟

«هل نهضتَ من السرير على رأسك أم على قدميك يا إدغار؟»، لطالما ساعدتْ هذه المزحة على تلطيف الأجواء، لكنّ إدغار ردّ عليه بازدراء: «لا»، وانغمسَ في قراءة الجريدة مرة أخرى.

«ولد تافه.» قال البارون لنفسه، ثم هزّ كتفيه باستهجانٍ

وانصرف. ها قد أُعلِنت الحرب!

كان إدغار باردًا ومهذبًا مع والدته أيضًا، إذ رفض بهدوءٍ محاولةً خرقاء منها لإرساله إلى ملعب التنس. لقد أظهرت الابتسامةُ الباهتة واللاذعة على شفتيه أنّ الخداعَ لن ينطلي عليه بعد اليوم.

«أفضّلُ أنْ أخرج في نزهةٍ معك ومع البارون يا ماما». قالها بلطفٍ متصنّع، ناظراً إلى عينيها. من الواضح أنها قد وجدتْ جوابَهُ مزعجًا، تردّدت، وبدت كأنها تبحث عن شيءٍ لتقوله. «انتظرني هنا»، نطقتْ أخيرًا، ثم ذهبت لتناول الفطور.

انتظرها إدغار، لكن شكوكه ازدادت. كانت مواهبُهُ المتيقّظة مشغولة بالبحث عن سرّ مّا، وعن تفسير شرير لكل كلمة يقولها الكبيران. حالةُ انعدام الثقة التي يعيشها، جعلتْهُ حادّ البصيرة في استنتاجاته. ولذا بدلا من أن ينتظر في البهو كما أمرته والدته، قرّر الخروج إلى الشارع، فمِنْ هناك يمكنه مراقبة المدخل الرئيسي للفندق والأبواب الجانبية أيضًا. شيءٌ مّا في داخله اشتمَّ رائحة الخديعة، لكنهما لن يستطيعا الهرب منه بعد اليوم. هناك في الشارع، اختبأ خلف كومةٍ من الحطب، حيلةٌ مفيدة تعلّمها من الكتب التي قرأها عن الهنود الحمر. ابتسم ابتسامة الرضى بعد نصف ساعة بالضبط، عندما رأى أمه تخرج من أحد الأبواب الجانبية حاملةً باقةً من الورود الجميلة، وخلفها ذاك البارون الخائن. بدا الاثنان في حالة من المرح، أتُراهما يتنفّسانِ الصعداء لأنهما قد هربا منه؟ الآن... يحسبانِ أنهما وحيدان مع سرّهما المشترك! وقد كانا يضحكان أثناء سيرهما، آخذين الطريق

المتجه نحو الغابة.

جاءت اللحظة المناسبة، أطلَّ إدغار من خلف كومة الحطب بهدوء، كما لو أنه موجود هنا بمحض الصدفة. وبمحض الصدفة أيضًا مشى نحوهما، معطيًا لنفسه كثيرًا من الوقت، ليستمتع بالمفاجأة التي سيراها على وجهيهما. دُهشَ الاثنان، وتبادلا نظرات الاستغراب. اقتربَ الولد منهما ببطء، متظاهرًا أنّ لقاءه بهما عفويّ ولا معنى له، لكنه لم يستطع إخفاء نظرته الهازئة بهما.

«آه... أنتَ هنا يا إدغار، كنا نبحث عنك في الداخل» قالت أمه. يا لَهَا من كاذبةٍ مفضوحة الوجه، فكّر الطفل، لكنّ شفتيه لم تنفرجا، بل أبقتا السرّ -سرّ كراهيّته لهما- محبوسًا خلف أسنانه.

ثم وقف الثلاثة معًا في حيرةٍ وارتباك، وكلٌّ منهم يرمقُ الآخر. «هيّا فلْنخرجْ معًا» قالتْ والدةُ إدغار، غاضبةً حقًّا لكنْ مُستكينةً أيضًا، وهي تنتفُ إحدى الورود الجميلة. مرةً أخرى يرى الولدُ انتفاخَ منخريها الذي يفضحُ حنقها الشديد، فتوقّف كما لو أنّ الأمر لا يعنيه بتاتًا، وراح ينظر إلى السماء، ثم انتظر حتى بدآ المشي، فسار خلفهما.

قام البارون بمحاولة جديدة: «اليوم مسابقة التنس، هل شاهدتَ شيئًا كهذا من قبل؟»

نظرَ إدغار إليه بازدراء، ولم يجبْه، فقط زمَّ شفتيه كما لو أنه يصفّر. هذا جوابه الكامل، لقد بدأ الحقد يُعربُ عن نفسه.

كان حضورُهُ غير المرغوب فيه يجثمُ على صدريهما مثل الكابوس. كانا يمشيان مثلما يمشي السُّجناء خلف السجّان، بقبضاتٍ مشدودةٍ من القهر. لم يكن الطفلُ يفعل أيّ شيء، لكنْ مع كلّ دقيقةٍ تمضي، يصبح وجودُهُ غير محتمل بالنسبة إليهما. هو من جهة، ونظرتُهُ اليقظةُ المخضلَّة كما لو أنّ في عينيه دمعةً مكبوتة، من جهة أخرى. بالإضافة إلى مزاجه الكئيب المتعض، ورفضِه كلَّ المحاولات لترضيته بأسلوبٍ فظّ.

«امشِ إلى الأمام!» صاحتْ والدتُه بحنقٍ بعدما ضاقتْ ذرعًا بمراقبته اللصيقة: «لا تتراقصْ أمام قدميّ بهذا الشكل، أنتَ توتّـر أعصابي!»

أطاعَها إدغار، لكنه كلّما سبقَهُما ببضعة خطوات، يلتفتُ ويقفُ منتظرًا إذا ما تباطآ بالمشي خلفه. كانت أنظارُهُ تحيطُ بهما من كل الجهات، كما لو أنه «مفيستوفيليس» على شكل كلبٍ أسود. كان ينسجُ شبكةً نارية من الحقد، ويوقعهما في شِرَاكها من دون أيّ أملٍ لهما في النجاة.

كان حسُّ الدعابة لديهما يتآكلُ تحت تأثير حقده وصمته، وحديثُهما يفسُدُ بنظرةٍ واحدة منه. لم يجرؤ البارون على النطق بكلمة غزل واحدة، لقد شعرَ -مقهورًا- أنّ المرأة تفلِتُ من بين يديه، وأنّ لهيبَ الشغف الذي أشعله -بشقّ الأنفس- في داخلها، بدأ يبرُدُ بسبب خوفها من الطفل المزعج المريع. حاولا الاستمرار في الحديث أكثر من مرة، لكن محاولاتهما باءتْ بالفشل. وفي النهاية سار الثلاثة

على طُول الطريق صامتين، صمتٌ لم يتخلّله سوى صوت حفيف الأشجار، ووقْعِ خُطاهم على الأرض. لقد خنقَ الطفلُ كلَّ محاولةٍ للكلام في مهدها.

الآن، بات الثلاثةُ يشعرون بالسخط والحقد. ابتهج الولدُ المغدور حين أدركَ أنّ غضبَ الكبيرَين العاجز، موجّهٌ بأكمله إلى وجوده بحدّ ذاته، وجوده الذي حاولا تجاهله. وبعينين تفيضان سخريةً، كان يتفحّص وجهَ البارون المتجهّم، ويراهُ يتمتم ببعض اللعنات بين أسنانه، ويتدرّبُ على ضبط النفس لكيلا تنفلتَ منه وتخرج بصوت عالٍ. وفي نفس الوقت، كان يراقبُ -بلذةٍ شيطانية- غضبَ أمه المتصاعد، ويرى أنّ كليهما يبحثان عن سببٍ لينقلبا عليه، ليطرداه بعيدًا، أو بشكلٍ عام ليعيداه إلى وضعه السابق كولدٍ غير مؤذ. لكنه لم يُعطهما أيّ فرصة، فقد ربّى ضغينته واشتغلَ بها لعدّة ساعات، ولم يكنْ مستعدًّا لإظهار أيّ ضعف.

«هيا بنا نعود.» قالت الأمُ فجأة، شعرتْ أنها ما عادت تقدرُ على تحمُّل هذا الوضع أكثر من ذلك، ويجبُ عليها فعلُ شيءٍ مّا، يجبُ -على الأقل- أنْ تصرخ تحت التعذيب!

«يا للأسف!» قالَ إدغار بهدوء، «الجوّ جميلٌ هنا».

عرف الاثنان أنّ الطفل يسخر منهما، لكنْ لم يجرؤا على قول شيء. في مدّة لا تتجاوز اليومين، تعلّم الطاغيةُ الصغير كيف يضبط نفسه ببراعة، فلم تتحرّكْ أيٌّ عضلةٍ في وجهه لتفضح سخريته. دون أي كلمة، ساروا طوال طريق العودة. كانت أمُّ إدغار ما تزال في حالةٍ

عصبية عندما وصلتْ مع ابنها إلى غرفتها، فرمتْ نظارتها الشمسية وقفازاتها بغضبٍ على الأرض. عرف إدغار في الحال أنّ أعصابها متوترة، وأنّ احتقانها يتطلّبُ التفريغ، لكنّ الهيجان الخانق هو كلُّ ما أراده لها، ولهذا بقي معها في الغرفة بغرضِ استفزازها أكثر. مشتْ في الغرفة بسرعة، ثم جلستْ وهي تنقر بأصابعها على الطاولة، ومن ثم نهضتْ على قدميها فجأةً: «ما هذا المنظر؟ كيف تجلس بهذا الشكل المتّسخ وغير المرتّب؟ كيف تسير هكذا بين الناس؟ يا لهُ من عار! ألا تشعرُ بالعار من نفسك؟ من عُمرك؟»

دون أيّ كلمة، ذهب الولد إلى المرآة ليصفّف شعره. كان صمته البارد والعنيد، وابتسامته الهازئة المرتسمة على شفتيه يثيران جنونها، فكادتْ تضربه. «اذهب إلى غرفتك!» صرختْ بأعلى صوتها، فهي ما عادت تحتملُ وجوده أبدًا. ابتسم إدغار، وانصرف.

كيف يرتجفان أمامه الآن! كم هي والبارون خائفان منه! ومن كلّ ساعة يمضيها الثلاثةُ معًا، كم هما مذعوران من عينيه القاسيتين اللتين لا تعرفان الرحمة! وكلّما شعرا بالارتباك أكثر، شعرَ الولدُ برضى ولذة أكبر، فتزداد نظراته تحدّيًا وبهجة. إدغار الآن... يعذّبُ الزوجَين الأعزلين بكلّ الفطرة العدوانية التي يملكها الأطفال، تلك التي مازالت محتفظةً بطبيعتها البهيمية. كان البارون قادرًا على كبح غيظه، لأنه مازال يأملُ خداع الولد، ويفكّرُ في غاياته الخاصة فقط. لكنّ الأم بدأتْ تفقد السيطرة على نفسها، وتنتظر أي فرصةٍ لكي تصرخ عليه وترتاح. «لا تلعبْ بالشوكة!» زجرتْهُ على مائدة الطعام،

«يا لكَ من ولد شقيّ، أنتَ لا تستحقّ أنْ تجلس وتأكل مع الكبار!» أتبعَ إدغار الابتسامة بالابتسامة، وهو يُميل رأسه إلى الجانب. كان يعلم أنها توبّخه من شدة اليأس، فشعرَ بالفخر لأنه استطاع أنْ يدفعها إلى فضح نفسها بهذه الطريقة. كانت نظرتُهُ هادئة تمامًا، وكأنها نظرةُ طبيب. في السابق، كان يتصرّف بشقاوةٍ لكي يزعجها، لكنك تتعلّمُ أشياء كثيرةً عندما تكره، وتتعلّمها بسرعة. فهو الآن لم يقلْ شيئًا، حافظَ على صمته دون أي كلمة، لكي يوصلَها ضغطُهُ المتراكم إلى حدّ الصراخ.

لم تعد الأم تحتملُ هذا الوضع البتّة، وعندما نهضَ الكبيران من الطاولة، ورأتْ أنّ إدغار سيتبعهما، وكأنّ الأمر واجبٌ ومسلَّمٌ به، انفجرتْ غيظًا على الفور. رمَتْ أرضًا كلَّ ما تملك من اللباقة والترويّ، وبصقَت الحقيقة كما هي. معذّبةً تحت وطأة حضوره الخبيث، نطّتْ وحطّتْ مثل حصانٍ يلسعُهُ الذباب: «لماذا تتبعني أينما ذهبتُ مثل طفلٍ عمره ثلاث سنوات؟ كفَّ عن الالتصاق بي طوال الوقت! الأطفال لا ينتمون إلى الكبار، تذكّرْ ذلك! اذهبْ وافعلْ أيّ شيءٍ لمدة ساعة أو أكثر. اقرأ كتابًا، افعلْ أيّ شيء تحبّه، لكنْ دعني وشأني! أنتَ تفقدني أعصابي حين أراكَ حولي طوال النهار بمنظركَ البائس الشنيع!».وأخيرًا انتزعَ اعترافًا منها! ابتسم إدغار، بينما ظهرتْ علامات الحرَج عليها وعلى البارون. استدارتْ وهـمّتْ بالخروج، غاضبةً من نفسِها لأنها أظهرتْ للطفل مدى استيائها. لكنّ إدغار قال ببرودة قاتلة: «لا يريدني بابا أنْ أتسكّع وحدي في

هذا المكان، لقد طلبَ مني بابا... أنْ أعدَهُ بأنْ أكونَ حذرًا، وأنْ أبقى قريبًا منك».

شدّدَ على حروف كلمة «بابا» بعدما لاحظَ أنّ لها تأثيرًا مُثِلاّ في كليهما. وبالتالي فلا بدَّ من أنّ البابا جزءٌ من ذلك السرّ الخارق أيضًا، لأنّ لهُ نوعًا من القوة السحرية على كليهما. وهو أمرٌ لم يفهم سببه، حتى أنّ مجرّد ذكر اسمه يزعجهما ويخيفهما. مرةً أخرى لم يجيبا، أَسْبلا أذرعهما، ومشت الأم صامتةً ومعها البارون. ثم تبعهما إدغار، لكنه لم يكنْ خانعًا كالخادم، بل كان قاسيا وصارما وحقودا مثل السجّان. وبشكلٍ لا مرئي، قيّدَ أيديهما بالسلاسل، فقد كانا يُطقطقانِ بها دون أنْ يقدرا على كسرها. لقد فَوْلَذَت الكراهيةُ قلبَ الطفل، وهو الذي لا يعرفُ السرّ، كان أقوى من الاثنين اللذين قيدت أيديهما به.

(9)

الكاذبان

لكنّ الوقت يمضي سريعًا، ولم يعد أمام البارون سوى بضعة أيام، ويريد أن يعيشها بأحسن ما يكون. شعر الاثنان أنّ مقاومتهما للطفل المتعنّت الغاضب لا تجدي نفعًا، ولهذا لجآ إلى المخرج الأخير والأحطّ: الفرار! فقط للهروب من طُغيانه لمدة ساعة أو ساعتين.

«خُذْ هذه الرسائل إلى مكتب البريد لو سمحت، وأرسلها بالبريد المسجَّل.» قالت الأمُّ لإدغار.

كانا يتكلّمان في بهو الفندق، بينما كان البارون يتحدث إلى سائق العربة في الخارج.

أخذَ إدغار الرسائل متوجّسًا، فقد لاحظ أنّ أحدَ الخدم قد أوصلَ رسالةً إلى أمه قبل ذلك. هل يُدبّران مؤامرةً ضدّه؟

تردّد فقال: «أين سأجدك؟»

«هنا».

«أكيد؟»

«نعم».

«رغم ذلك، حذارِ أنْ تذهبي بعيدًا! ستنتظرينني هنا في البهو

حتى أعود، أليس كذلك؟» من خلال إدراكه أنّ لهُ اليد العليا، صار يتكلّم من موقع المستبدّ، وكأنه يُملي الأوامر على أمه. كثيرةٌ هي الأشياء التي تغيّرتْ من يوم ما قبل البارحة.

خرج حاملا الرسالتين، وعند الباب التقى بالبارون وتحدّث إليه لأول مرةٍ من يومين: «أنا ذاهبٌ لأوصل رسالتين إلى البريد فقط، أمي ستنتظرني هنا. أرجو ألاّ تغادرا قبل أنْ أعود».

مشى البارون مسرعًا بجواره: «لا، لا، سننتظرك».

ركض إدغار إلى مكتب البريد، وهناك كان عليه أنْ ينتظر، لأنّ الرجل الذي أمامه كان يطرحُ عشرات الأسئلة السخيفة على الموظف. وفي النهاية استطاع إنجاز مهمته، فعاد راكضًا وهو يحمل الإيصالات بيده. لكنه وصل في اللحظة ذاتها التي غادرتْ فيها العربة التي تضمُّ أمه والبارون.

جمُد في مكانه من شدّة الغضب، وكاد أنْ ينزل ويلتقط حجرًا ليرميه خلفها. إذن لقد هربا منه بعد كلّ ذلك، وبواسطة كذبةٍ خسيسةٍ ومنحطّة. لقد عرف منذ الأمس أنّ أمه تقول الأكاذيب، لكنّ فكرة أنْ تكون صفيقةً إلى درجة أنْ تخلفَ وعدًا قطعتْه للتوّ، دمّرتْ آخرَ ذرةٍ من ثقتهِ فيها. كان لا يفهم أيّ شيء في الحياة، لكنه صار يعرف أنّ الكلمات التي اعتقدَ أنها تمثّل الحقيقة، ليست سوى فقاعاتٍ براقة، تنتفخ بالهواء ثم تنفجر، تاركةً لا شيء خلفها. ما نوع ذاك السرّ الفظيع الذي يدفعُ الكبار بعيدًا... إلى درجة أنْ يكذبوا عليه... على طفلٍ يهربون منه مثل اللصوص؟! في الكتب التي قرأها، يخدعُ

الناس بعضهم ويقتلون بعضهم من أجل المال أو السلطة والممالك. لكن ما السبب هنا؟ ما الذي يريده هذان الاثنان؟ لماذا يختبئان منه؟ ما الذي يحاولان إخفاءه خلف تلك الأكاذيب كلها؟ أجهَدَ عقلَهُ في التفكير، وأحسّ -بشكلٍ غامض- أنّ السرّ هو المزلاجُ الذي يقفلُ بابَ الطفولة، وما إنْ يسحب المزلاجَ وينتزع السرّ فهذا يعني أنه قد صار كبيرًا، رجلًا بعد انتظارٍ طويل. آهٍ لو يعرف هذا السرّ فقط! لكنه لم يعد قادرًا على التفكير بصفاء، لأنّ غضبه الحارق الملتهب -إثرَ هروبهما منه- شوّشَ ذهنه وعينيه.

خرج في اتجاه الغابة، واختبأ تحت الظلال حيث لا يمكن لأحد رؤيته، وانفجر بالبكاء العاصف. «أيها الكاذبان، أيها المحتالان الخائنان الحقيران!» كان عليه أنْ يصرخ بالشتائم التي يوجّهها إليهما، وإلّا فسيختنق. كلُّ غضبه وسخطه واستيائه وفضوله وعجزه وخياناتِ الأيام الفائتة، كان يكبتُها في ظلّ نضاله الطفولي للعيش في وهم أنه قد صار شابًا، لكنها الآن انفجرتْ منه ووجدتْ راحتها في سيلٍ من الدموع. لقد كانت آخرَ نوبةِ بكاءٍ في طفولته، النوبة الأخيرة والأعنف، آخرَ مرةٍ يستسلمُ مثل فتاةٍ لتـرَفِ البكاء. في تلك الساعة من الغضب والاضطراب، أخرجَ كلَّ ما في داخله مع الدموع: الثقة، الحبّ، الإيمان، الاحترام... طفولتَهُ بأكملها.

لقد كان ولدًا آخرَ ذاكَ الذي عاد إلى الفندق، هادئًا ويتصرّف بتروٍّ. صعد بداية إلى غرفته وغسل وجهه وعينيه بعناية، لكيلا يمنح ذينك الزوجين فرحةَ النصر عند رؤية آثار الدمع. ثم أجرى

حساباته، وانتظر بصبرٍ دون أيّ تلهّف أو توتر.

كان البهو ممتلئًا بالناس عندما توقفتْ عربةُ الهاربَين أمام الفندق. كان بعضُ الرجال يلعبون الشطرنج، وآخرون يقرؤون الصحف، بينما كانت السيّدات يتحدّثن. وكان الطفلُ جالسًا بينهم بهدوءٍ تامّ، بوجهٍ شاحب، ونظراتٍ يرشقُها كالسهام هنا وهناك. عندما دخلتْ أمه والبارون، بَدَا عليهما الحرجُ حين رأياه بشكلٍ مفاجئ، وكانا على وشكِ تمتمة العُذرِ الذي اتّفقا عليه مُسبقًا. لكنه سار إليهما بهدوءٍ تامٍّ شادًّا قوامَهُ ورافعًا رأسه، وقال بنبرة تحدٍّ: «أيها البارون، ثمة شيءٌ أريد أنْ أقوله لك».

ارتبكَ البارون، وأحسَّ كمَنْ أُلقيَ القبضُ عليه متلبّسًا بجريمة. «نعم، نعم، لاحقًا، بعد دقيقة!»

لكن إدغار رفعَ صوته أكثر، وقال بصوتٍ عالٍ وواضح، يستطيع كلّ مَنْ هُمْ حوله أنْ يسمعوه: «أريد أنْ أتكلّم معك الآن! لقد تصرّفتَ بشكلٍ بالغ السوء، لقد كذبتَ عليّ. كنتَ تعرف أنّ أمي تنتظرني هنا، لكنك...»

«إدغار!» صاحت الأمُّ وهي ترى كلَّ الأنظار قد اتجهتْ إليها، ومشَتْ إليه.

لكنه الآن، وهو يراها قادمةً لكي تمنعَ الآخرين من سماعِ ما يقوله، رفعَ صوته إلى أعلى طبقةٍ حتى أنه صار يصيح:

«أقولُ لكَ مرةً أخرى أمام الجميع، لقد كذبتَ أشنعَ الأكاذيب،

وهذا أمرٌ دنيء، هذا أمر فظيع».

وقفَ البارون في مكانه متجهّمًا، والناسُ يحدّقون به، وآخرون يبتسمون.

أمسكت الأمُّ بالولد الذي كان يرتجف غضبًا، «اصعدْ إلى غرفتك فورًا، وإلاّ فسأصفعُكَ أمام الجميع». قالتْها بقسوةٍ حقيقية.

لكن إدغار تمالَكَ أعصابه من جديد، وشعرَ بالندم لأنه صرخ بانفعال. لم يكن راضيًا عن نفسه، فقد أراد حقًّا أنْ يتحدّى البارون بنبرة هادئة، لكنّ غضبه قد غلَبَ نواياه. بهدوءٍ الآن، دون أي تسرّع، سار باتجاه السلالم.

«أرجوك أيها البارون، سامِحْهُ على سلوكه الوقح، فكما تعلم، إنه طفلٌ عصبي».

تلعثمتْ بالقول، غارقةً في الارتباك، وسطَ نظراتِ الناسِ الماكرة المحدقة بها. كانت لا تكرهُ شيئًا في العالم أكثر من الفضيحة، وكانت تعرف أنه يجب عليها الحفاظ على اتّزانها العقلي. فبدلًا من أنْ تهربَ في الحال، ذهبتْ إلى موظّف الاستقبال، وسألتْه إذا ما وصلتْ رسائل جديدة وأشياء أخرى، ثم صعدت إلى الأعلى وكأنّ شيئًا لم يحدث. لكنها غادرتْ ورأسُها ممتلئٌ بوشوشةِ الناس وتهامُسِهم وضحكاتهم المستترة.

أثناء مشيتها، خفّفتْ من سرعتها قليلا، فهي في الغالب تقفُ عاجزةً أمام الحالات الصعبة. كانت خائفةً من المواجهة، ولم تستطعْ

أنْ تنكر أنّ الخطأ هو خطؤها في الأصل. ومن جديد عادتْ خائفةً من النظرة التي في عيني الطفل، تلك النظرة الجديدة الغريبة الشاذة التي تشلُّها وتشوّشها. في ظلّ مخاوفها، قرّرتْ أنْ تجرّب المقاربة اللطيفة، فهي تعرف أنها إنْ فتحت النار، فسيكون ذلك الطفلُ الغاضب أقوى منها.

فتحت الباب بلطف. كان الطفل يجلس هادئًا وملتفًّا على نفسه، لم يكن هناك خوفٌ في العينين اللتين رفعَهُما إليها، ولا دهشة أو استغراب، كان واثقًا من نفسه كثيرًا.

«إدغار» بدأت الكلام بنبرةٍ أموميّة قدْر الإمكان، «ما الذي حدثَ لك بحقّ السماء؟ لقد جعلتني أشعرُ بالعار. كيف يمكن لأيّ شخصٍ أنْ يكون سيّء السلوك... كيف يمكن لطفلٍ بالتحديد أنْ يتحدث مع رجلٍ كبير بهذا الشكل؟ ستقدّم اعتذارك للبارون حالًا».

نظر إدغار إلى النافذة، وعندما قال «لا»، بَدَا وكأنه يتحدث إلى الأشجار.

بدأتْ ثقتُهُ في نفسِهِ تزعجُها.

«إدغار، ما مشكلتك؟ لم تعدْ كما كنتَ أبدًا. أنا لا أفهمك. لطالما كنتَ ولدًا طيبًا وذكيًّا، ويمكن لأيّ شخص أنْ يتكلّم معك. فجأةً صرتَ تتصرّفُ كما لو أنّ الشيطان قد سكَنَ فيك. ماذا عندك ضدّ البارون؟ كنتَ تحبُّه كثيرًا، وقد كان لطيفًا جدًّا

معك».

«نعم، لأنه أراد بذلك أنْ يصل إليك».

ارتبكتْ: «هذا هُراء! ما الذي تفكّر فيه؟ كيف لكَ أنْ تتخيّل شيئًا كهذا؟!»

عند ذلك، انفجر الطفل غاضبًا: «إنه كذّاب، إنه مجرّد مُدّعٍ. لا يفعلُ شيئًا إلا بعد حساباتٍ فظيعة وخسيسة. لقد أراد أنْ يتعرف عليك، ولهذا كان لطيفًا معي ووعدَني بكلب. أنا لا أعرفُ ما الذي وعدَكِ به، أو لماذا يتودُّد إليك، لكنه يريدُ شيئًا منكِ أيضًا. ماما، ثقي تمامًا أنه يريد شيئًا. لولا ذلك لما كان بهذا اللطف والتهذيب معك. إنه رجل شرير. إنه يكذب. فقط انظُري إليه لبعض الوقت، وسترين كم هو مُدّعٍ. أكرهه، إنه كذّاب بائس، إنه ليس طيّبًا...»

«أوووه إدغار، كيف لكَ أن تقول شيئًا كهذا؟» كانتْ حائرةً ولا تعرفُ ماذا ستقول ردًا على كلامه. شيءٌ مّا في داخلها يقولُ إنّ الطفل على صواب.

«إنه ليس طيّبًا، ولن تستطيعي تغيير رأيي. يجب عليكِ أنْ تَرَي ذلك بنفسك. لماذا يخاف مني؟ لماذا يبتعد عن طريقي؟ لأنه يعلمُ أنني أرى ما في داخله، أعرفُ أنه رجل شرير، أعرفُ ما هو عليه!»

«كيف لكَ أن تقول شيئًا كهذا؟ كيف تستطيع قوله!» يبدو أنّ دماغها قد تجمّد، بينما واصلتْ شفتاها اللتين جفّتْ دماؤهما تكرار

هاتين العبارتين. فجأةً بدأتْ تشعر بخوفٍ مريع، ولم تكن تعرفُ إذا ما كانت خائفةً من البارون أم من طفلها.

لاحظَ إدغار أنّ احتجاجَهُ قد جاء بنتيجة، ولذلك رغبَ في أن يتقرّب إليها، ويجعلها شريكته في الكراهية والحقد اللذين يُكنّهما للبارون. مشى برفقٍ إلى والدته، عانقها، وقال بصوتٍ رهيفٍ ومخاتل: «ماما، لا بُدّ من أنكِ لاحظتِ أنه لا يحمل أيّ خيرٍ في نواياه. لقد جعلَ منك شخصًا مختلفًا، أنتِ مَن تغيّر وليس أنا، لقد جعلك تنقلبين ضدّي لكي تكوني لهُ وحده. أنا واثقٌ من أنهُ سيخذلك. لا أعرفُ ما الوعدُ الذي قطعهُ لك، لكنني أعرفُ أنه لن يفي به. يجب عليك أنْ تحذري منه. مَنْ يكذبُ على شخصٍ مّا، سيكذبُ بالتأكيد على شخصٍ آخر. إنه رجل شرير، لا يمكن الوثوق فيه...»

كان صوتُه هامسًا ومفعمًا بالدمع، كما لو أنه يخرجُ من قلبها هي. فمنذُ البارحة تملّكها شعورٌ مقلقٌ يقولُ لها نفس الكلام، وها قد ازدادَ تملُّكًا أكثرَ فأكثر، لكنها تخجلُ من الاعتراف بأنّ طفلها على صواب. ومثلَ كثيرٍ من الناس في حالاتٍ كهذه، خلّصتْ نفسها من مأزق الشعور القاهر عن طريق الردّ بفظاظة. وقفتْ مشدودة الظهر:

«الأطفالُ لا يفهمون هذه الأمور، وليس من شأنك أنْ تتدخّل فيها. يجب عليك أنْ تحسن التصرف، وهذا كل ما في الأمر».

تجمّد وجهُ إدغار مجدّدًا: «كما تشائين»، وأضاف بحزم: «لقد حذّرتك».

«إذن، أنتَ ترفض أنْ تعتذر منه؟»

«نعم».

كانا واقفين أمام بعضهما بعضًا، وجهًا لوجه، أحسَّتْ أنَّ سُلطتها قد باتتْ على المحكّ.

«إذن، ستتناول وجباتك هنا، ولوحدك، ولن تأتي إلى طاولتنا إلّا بعد أنْ تعتذر. من الآن فصاعدًا سأعلّمكَ كيف تتصرف، ولن تغادر هذه الغرفة حتى آذنَ لك. هل هذا مفهوم؟»

ابتسم إدغار، يبدو أنّ هذه الابتسامة الماكرة قد صارت جزءًا من شفتيه. أما في سرّه فقد كان غاضبًا من نفسه، كم كان من الحماقة أنْ يتركَ قلبه يُفلِتُ منه للمرة الثانية؟ كم كان أبْلَهَ حين حذّرها من الكذّاب، وهي في الحقيقة كذّابة مثله!

خرجت الأمّ من الغرفة بثوبٍ يخشخش، دون أن تنظر إليه مرة أخرى. كانت تخافُ من تلك النظرة القاطعة في عينيه، ولم تعدْ ترتاح لوجوده، منذ أنْ شعرتْ بأنه يفتحُ عينيه الواسعتين ليقول لها -من خلالهما- ما لا تريدُ معرفته بالضبط، ما لا تريد سماعه. كان من المزعج جدًّا لها، أنْ تجد صوتًا داخليًّا، صوتَ ضميرها، منفصلًا عنها ومتجسّدًا على شكل ولد، يحومُ حولها مُقنّعًا بوجه طفلها، مُحذّرًا إيّاها ومُستهزئًا بها. قبل اليوم، كان طفلُها مجرّد جزءٍ من حياتها، مثل الحلي أو الدمى، كان شيئًا عزيزًا ومألوفًا، ربما شقيًّا بين الفينة والأخرى، لكنه دائمًا يسير معها في الطريق الذي تريد، ويسير على نفس وتيرة

مجرى حياتها. أما اليوم، فللمرة الأولى يتمرّد ويتحدّى إرادتها. وبدءًا من اليوم، ستحتفظ ذاكرتها بشيءٍ من النفور تجاه ابنها.

عندما كانت تنزل السلالم بشيءٍ من التعب، تحدّث إليها ذاك الصوتُ الطفولي من داخل قلبها: «يجب عليكِ أن تحذري منه»، ولم يكن قابلا للإسكات. وخلال مشيتها، لمحتْ بريقَ مرآةٍ هناك، فنظرتْ إليها بفضولٍ وتساؤل، ثم اقتربتْ منها أكثر فأكثر، حتى انفرَجَتْ شفتا صورتها المنعكسة بابتسامةٍ طفيفة، وتدوَّرتا كأنهما تُريدان البوحَ بكلمةٍ خطيرة. مازالتْ تسمعُ ذاك الصوت في داخلها، لكنها عدّلتْ قامتها وشدّتْ كتفيها، كما لو أنها تنفضُ عنها كلَّ المخاوف اللامرئية. أعطتْ لانعكاسها في المرآة نظرةً رائقة، أمسكتْ فستانها، ونزلت السلالم بالمظهر الواثق، والتصميم العازم، للمُقامر الذي يُوشك أنْ يرمي آخرَ قطعةٍ ذهبيةٍ لديه، ليتركها ترنُّ على طاولة القمار كما تشاء.

(10)
اقتفاء الأثر في ضوء القمر

النادل الذي أحضر العشاء إلى غرفة إدغار، أغلقَ الباب خلفه، ثم أقفلَ عليه. قفزَ الطفلُ حانقًا، فمن الواضح أنها تعليماتُ أمه، أنْ يبقى محبوسًا في الغرفة مثل حيوان برّي. تسلّلت الأفكار السوداء إلى رأسه.

ما الذي يحدث في الأسفل بينما أنا محبوس هنا؟ ما الذي يتحدث عنه أولئك الاثنان؟ هل سيخرج السرّ منهما أخيرًا، وسأفوّت على نفسي فرصة سماعه؟ آه، ذلك السر، أشعرُ به طوال الوقت، في كل مكان. حينما أكون مع الكبار، يغلقون أبوابهم عليه في الليل، ويتحدّثون عنه همسًا إذا دخلتُ إلى الغرفة بشكل مفاجئ. السرّ العظيم، كان قريبًا جدًّا مني خلال الأيام الأخيرة، كان أمامي تمامًا، لكنني مازلت لا أستطيع أنْ أضع يدي عليه! فعلتُ كل ما بوسعي لكي أكتشفه! سرقتُ كتبًا من دُرْج مكتب والدي وقرأتها، وكانت فيها تلك الأمور الغريبة، لكنني لم أفهمها. لا بدّ من أنّ هنالك سدًّا في مكان مّا، وما عليّ سوى تحطيم هذا السدّ لكي أكتشف السر، قد يكون في داخلي أو في داخل الآخرين. سألتُ الخادمة، أردتُ منها أنْ تشرح لي تلك التفاصيل في الكتب، لكنها ضحكتْ عليّ فحسب.

كم من المريع أنْ تكون طفلًا، هنالك الكثير من الأشياء التي تريد معرفتها، لكنه غيرُ مسموحٍ لك أن تسأل أيّ أحد، وتبدو دائمًا سخيفًا أمام الكبار، كما لو أنك غبيّ أو عديم الفهم. لكنني سأعرفُ السر، أحسّ بأنني سأكتشفه عما قريب. ثمة جزءٌ منه بين يديّ سلفًا، ولنْ أستسلم حتى أقبض عليه كاملًا.

أصاخ السمعَ منتظرًا أنْ يأتي أحد مّا. ثمة نسيمٌ لطيفٌ يسري بين الأشجار في الخارج، ويكسرُ الانعكاس الصامت لضوء القمر بين الأغصان إلى مئاتٍ من الشظايا المتأرجحة.

من المستحيل أنهما يخطّطان لأيّ شيء خيّر، إنهما لا يفكّران إلا في تلك الأكاذيب البائسة التي يستخدمانها لإبقائي بعيدًا عنهما. متأكدٌ من أنهما يضحكان عليّ الآن، آه كم أكرهُهُما، إنهما مسروران بالخلاص مني، لكنني أنا من سيضحك أخيرًا. كم كنتُ غبيًّا حين أوصلتُ نفسي إلى هذا الحبس، ومنحتُهما الحريّة ولو للحظةٍ واحدة، بدلًا من أنْ ألتصق بهما وألاحقَ كلَّ تحركاتهما. أعرفُ أن الكبار مستهترون على الدوام، وسيفضحون أنفسهم. يعتقدون أننا -نحن الأطفال- مازلنا صغارًا، وأننا نذهب إلى النوم فورًا عند المساء، وينسَون أنك تستطيع التظاهر بالنوم وإبقاء أُذنيك مفتوحتين. يمكنك أنْ تمثّل دور الغبي، وأنت في الوقت ذاته ذكي جدًّا. عندما أنجبتْ عمتي طفلًا منذ فترة قريبة، كانوا يعلمون الأمر قبل ولادته، لكنهم مثّلوا أمامي أنهم مندهشون كليًّا. كنتُ أعلمُ بأمره أيضًا، فقد سمعتُهم يتكلّمون عنه قبل أسابيع، في المساء عندما ظنّوا أنني نائم.

ولسوف أُفاجئُ هذين الزوجين الشنيعين الآن، آهٍ لو كان بإمكاني أنْ أنظر من خلال الجدران، لأراقبهما وهما يحسَبان نفسيهما في أمان. ماذا لو سحبتُ الجرس الآن؟ هل ستكون فكرةً جيدة؟ عندها ستأتي الخادمة وتسألني عمّا أريد. أو يمكنني أنْ أُصدرَ ضجيجًا عاليًا، وأكسرَ بعض الأواني الخزفية، وبعدها سيفتحون الباب أيضًا، فأهرب في تلك اللحظة وأذهب لأسترق السمع. أو... لا لا، لا أريد ذلك. لا أريدُ لأيّ أحد أنْ يعلمَ كم يعاملانني معاملةً سيئة، فأنا فخور بها، وسأنتقم منهما غدًا.

ضحكتْ امرأةٌ في الأسفل، قفزَ إدغار، فقد تكون أمّـه. كان من السهل عليها أنْ تضحك وتسخر منه، فهو مجرّد ولدٍ صغيرٍ عاجزٍ يُحبَسُ في غرفةٍ عندما يعترضُ طريقها، ويُرمى في الزاوية مثل كومةٍ من الملابس المتسخة. أخرجَ رأسه عبر النافذة بحذر، لا، ليست هي، إنهنّ بضع فتياتٍ فاتراتٍ يُضايقنَ شابًّا.

في هذه اللحظة بالضبط، رأى أنّ النافذة قريبة جدًّا من الأرض التي تحتها. وقبل أنْ يعرف ذلك بقليل، كان يفكّر في القفز إلى الخارج. الآن وهما يحسبان نفسيهما في أمان، ويذهب ليسترق السمع إليهما. ابتهجَ وانتعشَ لهذا القرار، كان الأمرُ كما لو أنه قد أمسك السرّ العظيم المتلألئ الذي يحجبونه عن الأطفال بين يديه. «امضِ، هيّا، إلى الخارج، الخارج!» قالَ صوتٌ مُلحّ في داخله. لم يكن الأمر خطيرًا، إذ لم يكن هناك عابرون في الأسفل. وبالفعل قفز، طقطقَ الحصى قليلا تحته، لكنّ أحدًا لم يسمع صوت السقوط الخفيف.

خلال اليومين المنصرمين، صار التسلُّل ومراقبةُ الضحية أعظمَ لذائذِهِ في الحياة. وقد شعر الآن بمتعةٍ ممزوجةٍ برهبة المخاطرة، وهو يسير حول الفندق على رؤوس أصابعه بحذر، متجنبًا السير تحت الأضواء الساطعة. في البداية ضغطَ خدّيه على بلّور نافذة غرفة الطعام، كانت طاولتهم المعتادة خالية، فتابع التجسُّس متنقلًا من نافذة إلى أخرى. لم يجرؤ على دخول الفندق، خوفًا من أيّ لقاءٍ مفاجئٍ معهما في أحد الممرات. لم يكونا في أيّ مكانٍ يمكن رؤيتهما فيه، فأصابه اليأسُ والإحباط قبلَ أنْ يرى ظلَّين عند المدخل، فتراجع إلى الخلف متواريًا تحت جنح الظلام. خرجتْ أمه ورفيقها المُلازم لها، وهكذا فقد جاء في الوقت المناسب تمامًا. ما الذي يتحدثان عنه؟ لم يكنْ يستطيع السماع، كانا يتكلّمان بصوتٍ منخفض، وكانت الريحُ تصفر بين الأشجار. ومع ذلك، فقد سمعَ ضحكةً بوضوحٍ الآن، إنها ضحكة أمه. لقد كانت ضحكةً لم يسمعْ مثلها من قبل، ذات طبقةٍ حادةٍ بشكلٍ غريب، ضحكةً انفعالية، كما لو أنّ أحدًا قد نكزها. كان الأمرُ مرعبًا بالنسبة إليه، إنها تضحك! هذا يعني أنْ لا شيء خطيرًا يخفيانه عنه، لا شيءَ عظيمَ القوة أو الكبر. شعرَ إدغار بالخيبة.

لو كان الأمر كذلك، فلماذا يغادران الفندق إذن؟ إلى أين يذهبان في هذا الليل لوحدهما؟... هناك في الأعلى -لا بدّ من أنّ الريح تطيرُ بجناحين عملاقين، لأنّ السماء كانت صافيةً ووضّاءة قبل لحظات، وها قد حلَّ الظلام الآن- ثمةَ أوشحةٌ سوداءُ تفردُها أيادٍ خفيّة، وتغطّي بها القمر من حينٍ إلى حين. ثم صار سواد الليل كثيفا،

فبالكاد ترى أمام قدميك. بعد لحظة، طَفَا القمر طليقًا، فعاد الضياءُ والصفاء من جديد، وانسكبتْ فضّتُه الرائقة على مفردات الطبيعة. كانت لعبةُ الضوء والظل غامضةً، وفاتنةً مثل لعبة الإظهار والإخفاء التي تجيدها المرأة. في هذه اللحظة تعرّت الطبيعة من وشاحها مجددًا، فرأى إدغار الخيالين على الجانب الآخر من الطريق، بالأحرى رأى خيالًا واحدًا لأنهما كانا ملتصقين ببعضهما كما لو أنّ خوفًا داخليًّا قد وحّدهما. لكن إلى أين يذهبان الآن؟ كانت أشجار الصنوبر تنوحُ مع الريح، وثمة حركةٌ غريبة في الغابة كما لو أنّ أشباحًا تطوفُ فيها. سأتبعُهما، قال إدغار، لن يسمعا وقْعَ خطايَ بين أصوات الرياح والأشجار. عندما سار الخيالان على طول الطريق العريض المُضاء، بقيَ هو بين الشجيرات المتشابكة المرتفعة عن الطريق، مسرعًا من شجرة إلى شجرة، ومن عتمة إلى عتمة دون صوت. كان يتبعهما بعنادٍ وحقد، يشكرُ الريح التي تمحو آثار خطاه، ثم يلعنُها لأنها تحملُ كلماتِ الزوجين بعيدًا عنه. لو يستطيع سماع حديثهما فقط لكان اكتشف السر بكلّ بالتأكيد.

هناك في الأسفل، كانا يسيران بأمانٍ دون ريبة، سعيدين بأنهما وحيدان في هذا الظلام الواسع المذهل، وضائعين في لذتهما المتنامية. دون إحساسٍ داخليّ يحذّرهما أنّ هنالك شخصًا بين الأجمات المظلمة، يتبعهما خطوة بخطوة، وعينين مُسمّرتين نحوهما بكلّ قوّة الكراهية والفضول. توقّفا فجأةً، فتوقف إدغار في الحال مُلصقًا جسده إلى شجرة. شعر برجفة فزع، ماذا لو رجعا الآن ووصَلا إلى

الفندق قبله؟ ماذا لو لم يقدر على العودة إلى غرفته بسلامٍ، ووجدتها أمُّـهُ خالية؟ عندها سيخسر كل شيء، وسيعرفان أنه كان يراقبهما خلسةً، وعليه ألّا يأمل يومًا بأن يحصل على السرّ منها. لكنهما تردّدا، كان من الواضح أنّ هناك اختلافًا في الآراء، ومن حسن الحظ أنّ القمر سطعَ من جديد، ليتمكّن من رؤية كل شيء بوضوح. كان البارون يشير إلى ممشىً ضيّقٍ ومعتم ينحدر نحو الوادي، حيث لا يتدفّق ضوءُ القمر بمجرى عريض كما هو الحال على الطريق هنا، بل يتسرّب من بين الأجمات المتشابكة كالقَطَرات. لماذا -تساءل إدغار- يريدُ النزول إلى هناك؟ يبدو أنّ أمه تقول لا، لكنه هو، البارون، مَنْ يتحدث إليها. كان بإمكان إدغار أنْ يعرف من قَسَمات وجه البارون كمْ هو مُلحّ بالضغط عليها لكي تفعل شيئًا. شعر الطفل بالخوف، ما الذي يريده البارون من أمه؟ لماذا يحاول هذا الرجل الشرير أنْ يجرّها معه إلى الظلام؟ فجأةً عادت لذاكرته صورٌ من الكتب التي قرأها والتي شكّلتْ عالمه بأكمله، صورٌ عن القتل والخطف، عن الجرائم الغامضة. نعم، هكذا إذن، يريد البارون قتلها، ولهذا أبعدَ إدغار عنها، واستدرجها إلى هنا. هل عليه أن يصرخ «النجدة»؟ ويصيح «قاتل! قاتل!»... كانت الكلمات على رأس لسانه، لكنّ شفتيه كانتا جافتين ولم تقدرا على النطق. بلغتْ أعصابه ذروة التوتر والهياج، لم يقدر على الوقوف على قدميه، فبحثَ عن شيءٍ ليستند إليه، تعلّق بغصنٍ فانكسَرَ بين يديه.

التفتَ الزوجان فجأةً إلى الوراء، فانحنى إدغار عند الشجرة،

ملتفًّا على الجذع بجسده الصغير المنكمش تحت الظلام. عمَّ صمتُ القبور، لكنْ رغم ذلك بَدَا عليهما الفزع. «دعنا نعُود»، سمعَ أمه تقول بصوتٍ خائفٍ بعض الشيء، فوافقها البارونُ على مضض. مشى الزوجان ببطء، ملتصقين ببعضهما. كانت صحوةُ العقل هذه من حظّ إدغار المختبئ بين الأجمات، الزاحف على أطرافه الأربعة، حتى خُدشتْ يداهُ وسالَ الدم منهما. وصلَ إلى منعطف الطريق الذاهب إلى الغابة، ومن هناك انطلقَ ركضًا إلى الفندق بأقصى سرعة يستطيعها. وصلَ منقطع الأنفَاس، وأسرع إلى الأعلى. من حُسن الحظّ أنّ المفتاح الذي أقفلَ البابَ عليه، وحبَسَـهُ في الداخل، مازال مُعلقًا في القفل، أدارَهُ وركض إلى الداخل وارتمى على السرير. كان عليه أن يرتاح لبضع دقائق، إذ كان قلبه يضربُ بقوّة مثل لسان الجرس حين يُقرَع.

تجاسَرَ على النهوض، ووقف عند النافذة منتظرًا عودتهما. كان انتظارًا طويلًا في الحقيقة، لا بدّ من أنهما يتمشيّان ببطءٍ شديد. مدّ رأسه عبر النافذة بحذر، فرآهما قادمين على مهل، وضوء القمر يلمع على ثيابهما. كانا يبدوان مثل شبحين وسْطَ الضياء المُخضرّ، ومن جديدٍ سَرَتْ رجفةُ الرعب في أوصاله. هل كان الرجلُ قاتلًا بالفعل؟ أيّ نوايا شريرة يخفيها عن إدغار؟ صار بإمكانه الآن رؤية ملامحهما بوضوح، بيضاء كالطبشور. كانت تعابيرُ النشوة والطرب مرتسمةً على وجه أمه، وهو وجهٌ لم يَرَها ترتديه من قبل. بينما كانت تعابيرُ وجه البارون جافة وعابسة، لا شكّ لأنّ خُططَه قد أُحبِطَتْ.

صارا قريبين جدًا، ولم تتغيّر ملامحهما حتى وصلا إلى الفندق. هل يمكن أنْ ينظرا إلى الأعلى؟ لا، لا أحد منهما نظرَ إلى النافذة. «لقد نسياني.» فكّر الولد بغضبٍ داخليّ محتدم، مع إحساسٍ بفرحة نصرٍ سرية. لكنني لم أنسَكُما! أتوقّعُ أنكما تحسبانني نائمًا، وليست لي أيُّ قيمة أو تأثير، لكنْ ستعرفان قريبًا كم أنتما مخطئان! سأراقب كلَّ خطوةٍ تخطوانها حتى أنتزعَ السرّ من ذلك الشرير البغيض، سأُحبِطُ المؤامرة التي تُدبّرانها بينكما. أنا لستُ نائمًا!

اقترب الزوجان من المدخل بتروٍّ، ودخلا الواحد تلو الآخر. عاد الخائنان معًا من جديد، واختفى ظلُّهما من المدخل المضاء. كانت الساحةُ الأمامية للفندق خاليةً ومضاءة بنور القمر، مثل حقلٍ جليدي واسع.

(11)

الهجوم

التقطَ إدغار أنفاسه، وتراجع عن النافذة وهو يرتجف من الخوف. لم يكن في أيّ يومٍ من حياته قريبًا من الألغاز الغامضة إلى هذا الحدّ. كان عالَمُ الكتب المثير، بما فيه من مغامراتٍ وتشويقٍ وقتل وغدر؛ مُثيرًا مثل حكايات الجنّ، قريبًا من عالم الأحلام، مكانًا خرافيًّا لا تصلُه اليد. لكنه الآن، وبشكلٍ مفاجئ، اكتشفَ أنه يقعُ وسْطَ عالمنا البشع هذا، فارتجفَ كيانُهُ بأكمله أمامَ مواجهةٍ صاعقةٍ كهذه. من هو ذاك الرجل؟ ذاك الرجل الغامض الذي اقتحم حياته الهادئة بغتةً؟ هل هو قاتل حقًّا؟ فهو دائمًا يبحث عن الأماكن النائية، وقد قام باستدراجِ أمّه إلى العتمة؟ يبدو أنّ أمرًا رهيبًا سيحدث. لم يعرف ماذا يمكنه أن يفعل، قرّر أنه سيكتبُ رسالةً إلى أبيه في الصباح، أو يرسَل إليه ببرقية. لكنْ، لِمَ لا يحدثُ الأمرُ الرهيبُ الآن؟ هذا المساء؟ لم تعد أمه إلى غرفتها بعد، كانت ما تزال مع ذاك الغريب البغيض.

مرّتْ هذه الدقائقُ وكأنها دهرٌ بالنسبة إليه، وفي النهاية سمعَ خطواتٍ حذرةً تصعدُ السلالم. أصاخَ السمع، لم تكن الخطواتُ سريعة، ليست خطواتِ شخصٍ ذاهبٍ إلى غرفته. بل خطوات متردّدة، تجرُّ نفسها جرًّا، في غاية البطء، كما لو أنها تتسلّق منحدرًا

شاهقًا وسط ممرٌّ ضيّق. ثمة تمتمةٌ وهمساتٌ بين الفينة والأخرى، ثمّ صمت. كان إدغار يرتجف غضبًا، هل هذه الخطواتُ لها؟ أمازال معها؟ كانت الهمساتُ بعيدةً جدًّا، لكنّ الخطواتِ التي مازالت متردّدة، راحتْ تقتربُ شيئًا فشيئًا. الآن... سمعَ صوت البارون الكريه، يقول شيئًا بصوتٍ منخفضٍ مبحوح، شيئًا لم يستطعْ فهمه. ثم صوتَ أمّه تعارضُهُ بسرعة: «لا لا.. ليس هذه الليلة!»

ارتعد إدغار، إنهما يقتربان، وصار يسمع كلَّ شيء الآن. كانت كل خطوةٍ تقترب باتجاهه، تحفرُ ألمًا عميقًا في قلبه. وذاك الصوت، كم هو شنيعٌ في نظره! الصوتُ المُلحُّ الجشعُ الرهيبُ للرجل الذي يكرهه.

«آه... لا تكوني قاسية القلب! تبدينَ جميلةً جدًّا هذا المساء».

ثم الصوت الآخر: «لا.. لا يمكنني، لا أستطيع. آه... دعني أذهب».

ثمة خوفٌ عميقٌ في صوت الأم، ارتعب الطفلُ منه. ما الذي يريد منها أنْ تفعله؟ لماذا هي خائفة؟ اقتربا أكثر وأكثر، لا بدّ من أنهما أمام باب غرفته الآن. كان يقف خلف الباب تمامًا، مقدارَ قبضة يدٍ عنهما، مرتجفًا وغير مرئي. صارت الأصواتُ قريبةً، وكأنها تهمسُ في أذنه.

«تعالي يا ماتيلده، هيّا...»

سمعَ أمّهُ تتأوّهُ من جديد، بصوتٍ أرقَّ هذه المرة، كما لو أنّ

مقاومتها قد ضعفتْ. لكنْ ما كلُّ هذا؟ لقد ذهبا إلى العتمة في آخر الممر، ولم تذهب أمهُ إلى غرفتها، لقد تخطّتْها! إلى أين يأخذُها؟ لماذا لم تعُدْ تتكلم؟ هل وضعَ كمّامةً على فمها؟ هل يضعُ يديه حول رقبتها ويخنقها؟ جعلتْه هذه الأفكار مذعورًا. دفعَ الباب بيدين مرتجفتين ليُفتحَ قليلًا. الآن، يرى كليهما في الممر المعتم. كان البارون يلفُّ ذراعه حول خصر أمه، ويسحبُها معه إلى الأبعد. تبدو منصاعة له الآن! توقّف البارون أمام باب غرفته، إنهُ يحاولُ استدراجها إلى الداخل فكّرَ الطفلُ الخائف أنه سيفعلُ بها أمرًا مريعًا.

باهتياجٍ شديد، خرجَ من غرفته صافعًا الباب خلفه، وذهب إليها. صرخت الأم عندما لاحظتْ أنّ شيئًا مفاجئًا يركضُ بسرعةٍ من قلب العتمة نحوها. يبدو أنها صُعقتْ من الرعب، ووجدَ صاحبُها صعوبةً في إبقائها واقفةً على قدميها. وفي اللحظة ذاتها، شعرَ البارونُ بقبضةٍ صغيرةٍ -ليستْ قوية- على وجهه، دافعةً شفتَهُ إلى أسنانه، وشيئًا ذا مخالبَ مثل القطّ يتسلّق على جسده. أفلتَ المرأة الخائفة فهربتْ على الفور، وردَّ الضربة بقبضته تلقائيًّا، دون أن يعرف من هذا الذي يصدُّ هجومه.

كان الطفل يعلمُ أنه أضعفُ من غريمه، لكنه لم يتوقّف عن القتال. وأخيرًا.. جاءت اللحظة، جاءت اللحظة التي كان ينتظرها طويلًا، اللحظة التي يمكنه فيها أن يُفرّغ كلَّ حبّه المغدور وكراهيّته المكبوتة. كان يضربُ الرجلَ خبطَ عشواء بقبضتيه الصغيرتين، وشفتاهُ تضغطان على بعضهما في حالة غضبٍ شديد. الآن تعرّف

البارون عليه، وكان أيضًا غاضبًا من هذا الجاسوس السريّ الذي نغّصَ عليه حياته طوال الأيام الماضية، وأفسدَ لعبته ومخططاته. ضربَ بقوةٍ على أيّ شيء يستطيع ضربه، فأَنَّ إدغار، لكنه لم يستسلم ولم يطلب النجدة. تصارَعَا بصمتٍ وشراسةٍ لمدة دقيقة في ممرٍّ منتصف الليل. أدرك البارون تدريجيًّا سخافة الموقف، إنه يتشاجر مع ولدٍ في الثانية عشرة! فأمسكَ إدغار بشكلٍ مُحكَم ليدفعه بعيدًا. لكنّ الطفل، وهو يحسُّ بعضلاته تفقدُ قوّتها، ويعرف أنه بعد لحظة سيكون مهزومًا، ويخرج من المعركة خاسرًا، عضَّ بلؤمٍ اليدَ القوية الـمُحكَمة التي تحاولُ إمساكه من قَفا رقبته. وهو يعضُّ، أطلقَ خصمُه -لا إراديًا- صرخةً مكتومة، وسحبَ يده. استغلّ الطفلُ هذه اللحظة الخاطفة ليلُوذ بغرفته، ويقفل الباب.

دامَ صراعُ منتصف الليل دقيقة واحد فقط، ولم يسمع أحدٌ من الناس أيّ صوت. كان الهدوء تامًّا، وكل شيءٍ غارق في نوم عميق. مسحَ البارونُ يده النازفة بالمنديل، وحدّق غاضبًا في الظلام. لم يسمعْ أحدٌ بما جرى، وحدَهُ السقفُ سمعهما، فكان مصباحُهُ يتراقصُ بوميضٍ متقطّع، أحسَّ البارون كما لو أنه يسخرُ منه.

(12)
العاصفة

هل كان حلمًا؟ كابوسًا مخيفًا؟ تساءل إدغار في صباح اليوم التالي، وهو ينهض من السرير متوترًا ومضطربًا أشعثَ الشَّعر. كان رأسه معذَّبًا بجلجلةٍ ثقيلة، ومفاصلُه متخشّبة، وعندما نظرَ إلى نفسِه أدركَ أنه مازال يرتدي البذلة. مشى مترنّحًا في اتجاه المرآة، فارتدّ خائفًا من وجهه الشاحب المشوَّه، إذ ثمةَ كدمةٌ حمراء منتفخة في منتصف جبينه. استجمعَ أفكاره بصعوبةٍ من هنا وهناك، وتذكّر كل شيءٍ بفزع؛ الشجارَ في الممر المعتم، انسحابه إلى غرفته، وكيف رمى نفسه بثيابه على السرير، مرتجفًا كالمحموم. لا بدّ من أنّ النعاس قد غلبه بعد ذلك، فغرقَ في إغفاءةٍ قاتمة وأحلامٍ مزعجة عادتْ كلُّها إليه الآن، لكنْ بشكلٍ مختلفٍ وأكثر إزعاجًا، عادتْ بالرائحة الرطبة للدم الطازج.

في الأسفل، ثمة خُطًى تضربُ الأرض، وأصواتٌ تحلّق مثل طيورٍ لا مرئية، وشمسٌ مشرقة تسطعُ حتى داخل الغرفة. لا بدّ من أنه في وقتٍ متأخّرٍ من الصباح، لكنه حين نظر إلى ساعته، أشارتِ العقارب إلى منتصف الليل. يبدو أنّ سَورة غضبه البارحة، أنستْهُ أنْ يربط الساعة. وهذا الارتياب، هذا الإحساس بأنه معلّقٌ في نقطةٍ

مّا من الزمن، أزعجَهُ وعزّز لديه حقيقةَ أنه لا يعرفُ ما قد جرى بالضبط. رتّبَ نفسه على عجلٍ، ونزل إلى الأسفل. ثمة ارتباكٌ وشعورٌ طفيف بالذنب في قلبه.

كانت أمه تجلس وحيدةً على طاولتهم المعتادة في صالة الطعام. تنفّس إدغار الصعداء عندما رأى أنّ عدوَّه ليس هنا، وأنه ليسَ عليه أنْ ينظر إلى الوجه الكريه الذي ضربه بحنق البارحة. رغم ذلك، كان قلقًا ومرتابًا وهو يقتربُ من الطاولة.

«صباح الخير.» قال.

لم تجبْ أمه، حتى أنها لم ترفع رأسها، بل بقيت محدّقة في النافذة المطلّة إلى الخارج. كانت عيناها جامدتين بشكلٍ غريب، وبدَتْ شاحبة الوجه، وهنالك دائرتان سوداوان حول عينيها، وقد كشفَ انتفاخُ منخريها كم هي مستاءة. عضّ إدغار على شفته مرتبكًا من هذا الصمت، فهو لا يعرف إذا ما كان قد آذى البارون بشكلٍ سيء البارحة، أو إذا ما كانتْ أمه تعلمُ بمشاجرة البارحة أم لا؟ عذّبه هذا الارتياب. لكن وجهها بقيَ متجمّدًا، وهو لم يحاول النظر إليها خوفًا من عينيها، عينيها اللتين أخفتْها الآن تحت حاجبين ثقيلين، ثم نظرتْ إليه للحظة. بقيَ صامتًا، لا يجرؤ على إحداث أي صوت، يحمل كوبه بحذرٍ ويُعيده بخوف. استرق النظر خلسةً إلى أصابع أمه التي تعبث بالملعقة بعصبيّة، كانت أصابعها تتقوّسُ وتأخذُ شكل مخالب، فتفضحُ غضبها العارم. جلسَ على هذه الحال لمدة ربع ساعة، مع الشعور المُرهق لمن ينتظر شيئًا لم يحدث. ولا كلمة، ولا

كلمة واحدة أتتْ لإنقاذه. والآن عندما نهضتْ أمه، دون أنْ تلتفتَ إلى وجوده، لم يعرف ماذا يفعل، هل يبقى جالسًا على الطاولة هنا أم يتبعها؟ في النهاية نهَض وتبعها خانعًا. مازالت تتجاهله بشكلٍ مقصود، وكان يعرف كم من السُّخفِ أنْ يلاحقها بهذه الطريقة. صار يقطع خطواتٍ أقصر فأقصر، لكي يتخلَّف عنها لمسافةٍ أطول. لكنها مازالت لا تراه، حتى أنها دخلتْ إلى غرفتها، وعندما وصل إدغار وجدَ أمامه بابًا مغلقًا.

ما الذي قد جرى؟ لم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل. شعورُ الثقة الذي تملّكه البارحة، قد هجره اليوم. هل كان مخطئًا في كلّ ما رآه ليلة أمس قبلَ أنْ يبدأ الهجوم؟ أم أنهما يُحضّران عقوبةً أو إهانة جديدة له؟ شيءٌ مّا سيحدث، أحسَّ بذلك وأيقنَه، شيءٌ مّا سيّء ومريعٌ سيحدث. الجوُّ الخانقُ لعاصفةٍ رعديةٍ قادمةٍ يفصلُ بينهما الآن، والتوتّرُ الكهربائي لقُطبينِ مشحونينِ لا بدّ من أنْ يفرغ على شكل صاعقة. بقي وحيدًا لمدة أربع ساعات، يجولُ من غرفةٍ إلى أخرى، وهو يحملُ على كاهله الخوف من القادم، حتى أنّ رقبته الطفلة الغضّة احدَوْدَبتْ تحت هذا الثقل اللامرئي. ثم ذهب إلى طاولتهم وقت الغداء، صاغرًا ومُستكينًا.

«طاب يومكِ.» حاول مرة أخرى، إذ كان عليه أنْ يكسر الصمت، فالتهديدُ والوعيدُ يجثمانِ فوق رأسه مثل غيمة سوداء.

مرةً أخرى لم تجبْ أمه، مرةً أخرى أزاحتْ نظرها عنه. وبرعبٍ مضاعف، شعرَ إدغار أنه يواجه غضبًا مُكثّفًا ومُحكمًا لم يرَ مثله في

حياته. فقبل هذا اليوم، كانت الشجارات التي تقع بينهما، انفعاليّةً مرتبطة بالأعصاب أكثر مما هي متعلّقة بالمشاعر. أما في هذه المرة، فقد أحسّ بأنه قد أيقظَ عواطفَ عنيفةً في أعماق قلبها، فارتجفَ من العنف الذي استجلَبَهُ لنفسِهِ بنفسِهِ سهوًا. كان لا يستطيع أنْ يبلع لقمة، فالجفاف يملأ حلقه ويهدّده بالخنق. لكنّ أمه لم تلحظْ شيئًا من ذلك، فقط عندما نهضتْ من الطاولة، التفتتْ إليه قائلة: «تعالَ إلى الأعلى يا إدغار، يجب أن أتحدّث إليك».

لم يكن في صوتها نبرةُ تهديد، كانت كلماتها باردةً مُثلجَةً جعلتْ إدغار يرتعد، ويحسُّ بقيدٍ فولاذيٍّ يطوّقُ رقبته فجأةً، ويحطّمُ رغبة التحدّي لديه. صامتًا، مثل كلبٍ أُثخنَ ضربًا، تبعها إلى غرفتها في الأعلى.

أطالتْ تعذيبَ إدغار عن طريق الحفاظ على صمتها لعدة دقائق، دقائق سمع خلالها تكّاتِ عقرب الساعة، وطفلا يضحك، ونبضاتِ قلبه التي تضرب بقوّةٍ في صدره. لكنْ لا بدّ من أنها غير واثقة في نفسها كذلك، لأنها لا تنظر إليه وهي تتكلّم معه، بل تدير ظهرها له.

«لا أريد أنْ أتحدث عن سلوككَ البارحة، لقد كان شائنًا وشنيعًا، لدرجة أنني أشعرُ بالعار لمجرّد التفكير فيه. لا تلُم غيرَ نفسك على النتائج. وأقولُ لكَ إنها آخرُ مرةٍ يُسمَحُ لكَ فيها أنْ تُجالس الكبار. لقد كتبتُ رسالةً إلى والدك قبل قليل، لأقولَ له إنه يجبُ أنْ نحضر مربيّةً لك، أو نرسلكَ إلى المدرسة الداخلية. لن أُزعجَ نفسي معك بعد الآن».

وقف إدغار مطأطئ الرأس، وأحسَّ بأنّ هذه هي المقدمة فقط، مجرّدُ تهديد، وانتظرَ ليسمع لُبَّ الموضوع.

«يجب عليكَ أنْ تعتذر من البارون حالاً...حالاً». جفلَ إدغار وتراجع قليلًا، لكنها أكملتْ: «لقد غادر البارون صباح اليوم. يجبُ أن تكتب رسالةً إليه، وسأُمليها عليك».

تراجعَ إدغار مجدّدًا، لكنّ أمه كانت صارمة.

«دون أيّ نقاش! هذه هي الورقة والحبر، اجلسْ».

نظر إدغار إليها، كانت عيناها متشبّثتين بقرارها الحازم. لم يرَ أمه على هذه الشاكلة من قبل، عنيدةً ومتعنّتة. تملّكُه الخوف، فجلس وأمسك القلم، وأخفض رأسه بشكلٍ يلامسُ الورقة.

«التاريخ في الأعلى، هل كتبته؟ اتركْ سطرًا فارغًا قبل التحية. نعم هكذا. عزيزي البارون، ضعْ اسم العائلة ثم فاصلة، اتركْ سطرًا آخر. لقد استمعتُ أخيرًا إلى صوتِ الندم الكبير في داخلي... -هل كتبتَ ذلك؟- الندم الكبير في داخلي، عندما سمعتُ أنكَ قد غادرتَ سيمرينغ، -سيمرينغ بحرف ميم- ولهذا وجبَ عليّ ما كنتُ أنوي فعله شخصيًّا، وهو أنْ -اكتُبْ أسرع، يبدو أنكَ لا تتدرّب على تحسين خطك!- وهو أنْ أعتذر عن سلوكي البارحة. وكما قالت لكَ أمي، فإنني لم أزل أتماثلُ للشفاء من مرض خطير، وأُعاني من جهازي العصبي. كثيرًا ما أرى الأشياء على غير حقيقتها، وبعد لحظةٍ أندم وأتأسّف...»

رفع إدغار رأسه وشدّ ظهره، وعاد إلى المواجهة من جديد: «لن أكتب ذلك، هذا غير صحيح!»

«إدغار!» ثمة تهديدٌ في صوتها.

«هذا غير صحيح! أنا لم أفعلْ أيّ شيءٍ ينبغي أنْ أتأسّف عليه، لم أرتكبْ أي غلط، ولا حاجةَ لأنْ أعتذر. أنا لم آتِ إلاّ بعدما طلبتِ أنتِ النجدة!»

جفّت الدماءُ في شفتيها، وانتفخَ منخرها: «أنا طلبتُ النجدة؟ لقد فقدتَ عقلك!»

استشاط إدغار غضبًا، وقفز من الكرسي:

«نعم، أنتِ طلبتِ النجدة! في آخر الممرّ ليلة أمس، عندما كان ممسكًا بك. دعنيْ أذهب... هذا ما قلتِه. دعني! أذهب!... بصوتٍ عالٍ وصلَ حتى إلى غرفتي».

«أنتَ تكذب، لم أكنْ في الممر مع البارون. لقد رافقني إلى السلالم فقط».

توقّفَ قلبُ إدغار للحظةٍ وهو يسمع هذه الكذبة الفاقعة، خانَهُ صوتُه، ونظر إليها بعينٍ تجمَّدَ بؤبؤها.

«أنتِ... أنتِ لم تكوني في الممر؟ وهو... هو لم يكنْ ممسكًا بك؟ لم يكن يسحبكِ معه إلى الأمام؟»

ضحكتْ ضحكةً باردةً جافة: «لقد حلُمتَ بذلك!»

كان هذا كثيرًا على الطفل، فهو يعرف حتى اللحظة، أنّ الكبار يكذبون ويلفّقون أعذارًا وقحة، يُزوّرون الحقيقة لينجوا بأنفسهم، يقولون الشيء ويفعلون عكسه. لكنّ هذا الإنكار البارد الصفيق، وجهًا لوجه، أثارَ جنونه.

«وهل حلمتُ بهذه الكدمة التي على جبيني؟»

«كيف لي أنْ أعلم مع مَنْ كنتَ تتشاجر؟ لكنني لن أدخل في أيّ نقاش معك، ستنفّذ ما أمرتكَ به، وهذا كل شيء!»

كانت شاحبة الوجه كليًّا، تبذلُ أقصى جهودها لكي تحافظ على اتّزانها.

ثمة شيءٌ انهارَ في داخل إدغار، وكأنهُ آخرُ بصيصٍ من الثقة. لم يستوعبْ كيف يمكن أنْ تُداسَ الحقيقةُ تحت الأرجُلِ بهذه البساطة، وكأنها عودُ ثقاب. كلُّ ما في داخله كان ينقبضُ، ينكمش، ليصبح قاسيًا وحادًّا. قال بشراسةٍ متوحشة:

«إذن... كنتُ أحلم، أليس كذلك؟ حلمتُ بكلّ ما حدثَ في الممر، وبالكدمة التي على جبيني؟ وكيف ذهبتُما في نزهةٍ تحت ضوء القمر، وكان يريد أنْ يأخذك في الطريق النازل إلى الوادي، هل حلمتُ بهذا أيضًا؟! تظنّينَ أنه يمكنك حبسي في الغرفة مثل طفل؟ لستُ غبيًّا كما تحسبين. أنا أعرف ما أعرفه».

نظرَ إلى عينيها بجرأة، وهذا ما حطَّم قوتها؛ رؤيةُ وجهِ طفلها أمامها تمامًا، وهو محتقنٌ بالكراهية. انفجرتْ من الغضب.

«تابع الكتابة! اجلسْ وتابع الكتابة فورًا، وإلا...»

«وإلا...؟» كان صوته متحدّيًا ومتجبّرًا.

«وإلا فسأضربكَ كما يُضرَب الأطفال».

اقتربَ إدغار خطوةً منها، وضحكَ باستهزاء.

صفعتْه بيدها على وجهه، فصرخَ إدغار. ومثل رجُلٍ يغرقُ ويخبطُ بيديه، ولا شيءَ غيرُ هديرٍ أجوفَ في أذنيه ونارٍ لاهبةٍ في عينيه؛ ضربَـها خبْطَ عشواء بقبضتيه. أحسَّ أنه يضربُ شيئًا طريًا، ثم وجهها، ثم سمع صراخًا...

أعادَهُ الصراخُ إلى وعيه، وفجأةً رأى نفسَه وأدركَ الشيء الفظيع الذي فعله، إنه يضربُ أمه! صَرَعَهُ الفزعُ والعارُ والرعب. شعرَ برغبةٍ جنونية في الهرب من هنا، بأنْ تنشقّ الأرض وتبتلعه، بأنْ يرحل بعيدًا، بأنْ لا يرى نظرتها موجهةً إليه بعد الآن. ركضَ نحو الباب وأسرعَ نازلا السلالم، عابرًا من الفندق إلى الطريق العام. كان عليه أنْ يبتعد بعيدًا جدًّا، كما لو أنّ قطيعًا من الكلاب المسعورة يعدو في أعقابه.

(13)
استيعابٌ أوّل

توقّف بعد مسافة ركضٍ طويلة، وأمسك بإحدى الأشجار لكيلا يقع. كانت أطرافه ترتجف من الذعر والهيجان، وأنفاسه تنفجر بقوة من صدره المتوتر. كان الرعب مما اقترفتْ يداه يطارده، ويقبضه من حنجرته ويخنقه. ماذا يفعل الآن؟ إلى أين يذهب؟ هو الآن وسط الغابة التي لا تبعد أكثر من خمس عشرة دقيقة عن الفندق. أحسّ بالوحشة تملأ كيانه، وبدا كلُّ شيء مختلفًا وعدوانيًّا ومخيفًا، إنه الآن وحيد وليس معه أحد ليساعده. الأشجار التي كانت تصفر بلطف البارحة، صارت فجأةً قاسية وسوداء وكأنها تهديدات. كم هو غريب وغير مألوف ما ينتظره في المستقبل القريب! هذه العزلة، هذه الوحدة أمام العالم الهائل المجهول، جعلتْ الطفل يدوخ. لا، إنه لا يحتمل ذلك! لا يحتمل أن يكون وحيدًا. لكن إلى أين يمكنه أن يذهب؟ كان خائفًا من أبيه، فقد كان سريع الغضب وكثير المنع والحظر، وسيعيدُهُ إلى أمه في حال لجأ إليه. لم يكن يريد العودة على أي حال، بل يريد خوضَ غمار العالم المجهول الغريب الخطير. شعر أنه لن يقدر على النظر إلى وجه أمه مرةً أخرى، دون أنْ يتذكر أنه قد ضربه بقبضته.

ثم فكّر في جدّته، تلك السيدة الطيبة اللطيفة التي تُدَلِّـلُه مذ كان

رضيعًا، ولطالما حمته حين يكون مهدّدًا بالعقاب أو الظلم في البيت. سيختبئ عندها في «بادن» إلى أنْ تعبر عاصفة الغضب الأولى، ولسوف يرسل رسالةً إلى والديه من عندها، يعبّر فيها عن أسفه. في تلك اللحظة، شعر بالهوان لمجرّد فكرة أنْ يكون وحيدًا في العالم، وحيدًا وعديم الخبرة، لعنَ الغرور والتكبّر الغبيّ الذي أذكاهُ فيه الغريبُ بالأكاذيب. لم يكن يريد سوى أنْ يعود ذلك الطفل الذي كان، المطيع والصبور، من دون الغرور الذي تضخّم في داخله بشكلٍ سخيف.

لكن كيف له أن يذهب إلى «بادن»؟ كيف يسافر كل هذي المسافة؟ مدّ يده سريعًا إلى المحفظة الجلدية التي يحملها معه على الدوام. حمدًا لله! كانتْ قطعة العشرين كرونًا الذهبية البرّاقة –التي أُهديتْ إليه يوم عيد ميلاده– ما تزال موجودة. لم يكن قادرًا أن يُقنع نفسه بإنفاقها من قبل، لكنه في كل يوم يتأكد من وجودها، يمتّع عينيه برؤيتها، ويشعر بالغنى، ثم يمسحها –برفقٍ وامتنان– بمنديله حتى تلمع مثل شمس صغيرة. أجفلتْه فكرةٌ جديدة؛ هل ستكفي؟ لطالما سافر بالقطار دون أنْ يخطر في باله أنّ على المرء أن يدفع، ودون أنْ يتساءل كم يدفع، هل يدفع كرونًا واحدًا أم مائة كرونٍ؟ لأول مرة يشعر أنه لم يختبر شيئًا من وقائع الحياة، وأنّ كل الأشياء التي كانت حوله، أشياء أمسكها بيديه ولعبَ بها، كان لكلّ منها قيمتُه الذاتية وأهميته الخاصة. قبل ساعة فقط، كان يظنّ أنه يعرف كل شيء، والآن يشعر أنه عبَرَ أمام آلاف الأسرار والمشكلات دون أنْ يفكّر فيها للحظة، ويشعر بالعار لأن كمية المعرفة الفقيرة التي

يمتلكها تعثّرتْ عند أول عقبة تواجهه في الحياة. تملّكه اليأس أكثر فأكثر، وصارت خطواته أقصر فأقصر وهو يتردّد في اتجاه المحطة. لطالما حلُم بالفرار، باقتحام غمار الحياة، بأنْ يصبح إمبراطورًا أو ملكًا، جنديًّا أو شاعرًا، وها هو الآن ينظر باستحياءٍ إلى مبنى المحطة الصغير، ولا يستطيع أن يفكّر سوى في أمرٍ واحد فقط: هل ستكفي العشرون كرونًا للوصول إلى بيت جدّته؟ كانت سكة الحديد تمتدّ لامعةً باتجاه الأرياف، والمحطة خاليةً ومهجورة. بخجلٍ شديد، ذهب إلى مكتب التذاكر، وسأل عبرَ النافذة هامسًا، لكيلا يستطيع أحدٌ سماع ما يقول: «كم سعر التذكرة إلى بادن؟» نظر إليه وجهٌ متفاجئ من خلف البلّور الفاصل، وثمة عينان ابتسمتا للطفل المرتبك من وراء النظارات.

«أجرةُ الرحلة الكاملة؟»

«نعم» تلعثم إدغار، مذعورًا من السعر الذي سيسمعه.

«ستة كرونات».

«أريد واحدة، أرجوك!»

بضمير مرتاح، دفع القطعة النقدية البرّاقة الأغلى على قلبه عبْر النافذة، رنّتِ النقود التي أُرجعتْ إليه، فشعرَ أنه قد عاد غنيًّا من جديد. إنه الآن يمسكُ القطعةَ الكرتونيةَ البنيّة التي تعِدُهُ بالحرية بيده، بينما ترنُّ الكروناتُ الفضيّة في جيبه بموسيقى صامتة.

سيصلُ القطار بعد عشرين دقيقة، هكذا يشيرُ جدولُ المواعيد.

انزوى إدغار في إحدى الزوايا، وكان هناك بضعة أشخاص يقفون على الرصيف ويضيّعون الوقت. لكنّ الولد المهموم شعرَ أنهم جميعًا ينظرون إليه، ولا أحد غيره، متسائلين لماذا يسافر طفلٌ لوحده؟ كما لو أنّ هربه وجريمته مكتوبان على جبينه. تنفّس الصعداء عندما سمعَ أولى صافراتِ القطار آتيةً من بعيد، ثم هدير القطار المقترب. هذا هو القطار الذي سيأخذه إلى قلب العالم. عرف عندما صعد أنّ تذكرته من الدرجة الثالثة، وهو لم يسافر إلا بالدرجة الأولى من قبل، أحسَّ مرةً أخرى أنّ شيئًا قد تغير، أنّ هنالك فروقاتٍ لم يلحظها من قبل. كان جمعٌ من العمال الإيطاليين ذوي الأيدي الخشنة والأصوات القاسية، معهم مجارفُ ورفوش، يجلسون قبالته وينظرون إلى الفضاء بعيونٍ منطفئة. لا بدّ من أنهم قد عملوا عملًا شاقًّا، لأنّ بعضهم كانوا مرهقين فناموا في القطار رغمَ الجعجعة التي يحدثها أثناء سيره، مُسندين ظهورهم إلى الأخشاب القاسية المتسخة، وفاغرين أفواههم. كانوا يعملون من أجل كسب الرزق، فكَّر إدغار، لكنه لم يستطعْ تصوُّر كم يقبضون من المال. أدركَ إدغار أن المال شيءٌ لا تملكه على الدوام، شيء ينبغي كسبُه بوسيلةٍ أو بأخرى. ولأول مرةٍ أحس بالراحة، إذ بدأ يعتاد الأمر، بينما عن يمينه ويساره أفواهٌ فاغرة لم ترَ عيونه مثلها من قبل، يملؤها الظلامُ شيئًا فشيئًا. على حين غرّة، فهمَ أنّ هنالك مهنًا، وأنّ هنالك تصميمًا، أنّ هنالك أسرارًا كانت تحتشدُ حول حياته، قريبةً من متناول اليد، ومع ذلك كان يتجاهلها. لقد تعلَّم إدغار الكثير خلال الساعة الوحيدة التي قضّاها بمفرده، صار ينظر عبر نوافذ عربة القطار المكتظة، مُنطلقًا بخياله إلى البعيد.

وبسرعةٍ، وسْطَ كل هواجسه السوداء، شيءٌ مّا بدأ يزهرُ في داخله، لم يكن السعادة، بل الذهول أمام تنوّع الحياة. لقد تخلّص من الخوف والجُبن، فهو للمرة الأولى يتصرّف باستقلالية، ويختبرُ بعض الحقائق التي كانت تتملّصُ منه في السابق. لأوّل مرة -ربّما- أصبحَ هو نفسُه سرًّا بالنسبة إلى أمه وأبيه، مثلما كان العالمُ سرًّا بالنسبة إليه. نظرَ عبر النافذة بعينين جديدتين، وأحسَّ بأنه يرى العالم الحقيقي لأول مرة، كما لو أنّ حجابًا قد سقطَ عن كل الأشياء، ومكّنه من رؤية جوهرها وغايتها، المركز العصبي السرّي لحركتها. تطايرت البيوت أمام عينيه كما لو أنها تحلّق في الريح، ووجد نفسه يفكّر في الناس الذين يقطنون فيها، هل هم أغنياء أم فقراء، سعداء أم تعساء، هل لديهم نفس التوق الذي لديه لمعرفة كل شيء، وهل يوجد في داخلها أطفال مثله، لا يعرفون أكثر من الألعاب؟

كان عمّال الخطوط الحديدية يقفون على جانبي السكّة، ويلوّحون بالرايات الملونة، لكنه رأى فيهم ما لم يره من قبل، إذ كان يعتبرهم مجرّد حمقى، أو دمىً متحركة مرمية هنا بالصدفة البحتة، لقد فهم الآن أنّ هذا هو قدرُهم، هذا نضالُهم الخاصّ في الحياة. انطلقت عجلاتُ القطار أسرع وأسرع، وانعطفَ باتجاه الوادي، فبدَت الجبال أبهى وأبعدَ من ذي قبل، ثم وصل إلى السهل. نظرَ إدغار إلى الوراء مرةً، إلى المكان الذي مازال أزرقَ هادئًا وكثيرَ الظلال، فبَدَا نائيًا وبعيد المنال. شعرَ أنّ طفولته تقبع هناك، في المكان الذي صار وراءه، حيث تتلاشى الجبالُ تدريجيًّا في السماء الغائمة.

(14)
ظلمةٌ والتباس

عندما وصل القطار إلى «بادن»، وجد إدغار نفسه وحيدًا على رصيف المحطة. كانت الأضواء قد أُنيرتْ للتوّ، وإشاراتُ السكّة تلمع باللونين الأخضر والأحمر، فاختلطَ خوفه المفاجئ من الليل الوشيك مع هذا المنظر الزاهي. في النهار كان يشعر بالأمان طالما أنّ هناك بشرًا حوله، وكان يمكنه أنْ يرتاح بالجلوس على مقعد، أو يتفرّج على واجهات المحلات. لكنْ كيف له أن يحتمل ذلك عندما ذهب الناسُ إلى بيوتهم، لدى جميعهم أسرّة، وسيجدون مَن يتحدثون إليه ريثما يخلدون إلى النوم. بينما هو مجبرٌ على أنْ يتجوّل مع ضميره المذنب، وحيدًا في مكانٍ غريب؟ آهٍ لو كان لديه سقفٌ فوق رأسه فقط، كيلا يبقى واقفًا في الهواء الطلْق دقيقةً أخرى! كانت هذه أفضلَ فكرةٍ خطرتْ له.

سارع المشي في الشارع المعروف بالنسبة إليه، دون أي التفاتةٍ نحو اليمين أو اليسار، إلى أنْ وصل إلى الفيلّا التي تقطنُ فيها جدّته. كان موقعها جيّدًا، تُطلُّ على الشارع العريض، لكنْ لا يستطيعُ الجميعُ رؤيتها، فهي مختبئةٌ خلف العرائش والنباتات المتسلّقة للحديقة الـمُعتَنَى بها بشكلٍ ممتاز، مضيئةٌ وراء غيمة من الخضرة، بيضاءُ،

ومبنيّة على الطراز القديم. استرقَ إدغار النظر من خلال السور مثل الغريب، لا شيء يتحرك في الداخل، كانت النوافذ مغلقة، ومن الواضح أنهم جميعًا في الحديقة الخلفية مع ضيوف مّا. في اللحظة التي وضعَ فيها يده على مزلاج البوابة المعدني البارد، حدثَ له أمرٌ غريب ومفاجئ، فكُلُّ ما فكّر فيه خلال الساعتين الماضيتين، وحسبَهُ سهلًا وطبيعيًّا، بدا في هذه اللحظة مستحيلا. كيف له أنْ يدخل؟ كيف يمكنه أنْ يقول لهم «مساء الخير»؟ كيف يحتمل أسئلتهم وكيف يجيب عنها؟ كيف يقفُ أمام نظرتهم الأولى إليه، عندما يعترف بأنه قد هربَ من أمه خلسةً؟ وكيف يقدر على تبرير فداحة ما ارتكب، بينما هو نفسُه لم يتفهّمه حتى الآن؟ فُتح أحدُ أبواب المنزل، وفي الحال، غلَبَهُ خوفٌ أحمقُ من أنّ أحدًا ما يودُّ الخروج، فركض سريعًا دون أدنى فكرةٍ إلى أين يذهب.

توقف عن الركض حينما وصل إلى الحديقة المحيطة بالمنتجع الفاخر، لأن المكان مظلم تمامًا هنا، ولن يراه أحد. على الأقل يمكنه أن يجلس على الأرض، ليرتاح ويفكّر بهدوءٍ ويرتّب ذهنه المشوّش. دخل إلى الحديقة باستحياء، ثمة مصباحان مُناران عند المدخل، يمنحانِ الأوراقَ اليانعة وهجًا مائيًّا شبحيًّا من الخضرة الشفافة. دخل واتجه صوبَ المنحدر، كان كلّ شيءٍ يغفو بسوادٍ موحَّد وفوضى عارمة، وسْطَ الظلمة المرتبكةِ لليلةٍ في أول الربيع. انزلقَ إدغار خجِلًا أمام زوجين جالسين على جنب، يتحدثان أو يقرآن تحت ضوء المصباح. يريد أن يكون وحيدًا، لكنه لم يعرف الراحة

حتى في المعابر المعتمة. كل شيء كان ممتلئًا بحفيفٍ خفيف وتمتمةٍ تتحاشى الضوء، يمتزجان مع صوت الريح التي تنفخُ على الأوراق. ثمة وقْعُ أقدامٍ آتيةٍ من بعيد، وهمسُ صوتين منخفضين وملتهبين، نغماتٌ متنهّدة ونشيجٌ شجيّ من الخوف، أصواتٌ بشرية وحيوانية وشخيرُ الطبيعة النائمة، كل ذلك اجتمع مع بعضه. ثمة اضطرابٌ خطير في الهواء هنا، خفيٌّ وباطني، غامضٌ ومحترس. شيءٌ مّا يتحرّك في القاع، في الغابة، لا يتحرّك عادةً إلا في الربيع، وهذا ما أربكَ الطفل المتوتر أصلًا.

جلس على مقعد في قلب الظلام، وراح يفكّر: ماذا سيقول لهم في البيت؟ لكن كل أفكاره هربتْ منه قبل أن يتمكّن من قبضها أو الإمساك بها. رغمًا عن إرادته، لم يستطعْ سوى الإصغاء، والاستماع إلى الأنغام الصامتة والأصوات الغريبة للظلام. يا لهُ من ظلامٍ مريع، كم هو محيّـر وجميل بشكلٍ غامض! أَهي أصواتُ حيوانات؟ أم بشر؟ أم هي يدَ الريح الخفيةَ تنسجُ كل هذا النحيب والنشيج، كلَّ هذه الغمغمة والهمسات المغرية؟ أصاخَ السمع، كانت الريح تهزّ الأشجار بقوة، لكنه الآن يرى بوضوح، فهنالك أناس أيضًا، زوجان يشبكان ذراعيهما ببعض، قادمان من البلدة المضاءة ليبثّـا الحياة في قلب الظلام. ماذا يريدان؟ لم يكن يفهم. كانا لا يتحدّثان مع بعضهما بعضًا، لأنه لم يسمع صوتًا، فقط وقع الأقدام. ومن هناك إلى هنا، في الخلاء الذي أمامه، رأى صورتيهما تنطلقان على عجل مثل ظلّين، وهما متعانقان ومتشابكان مثل أمه والبارون مساء الأمس.

هذا يعني أن السرّ، السرّ العظيم المدهش المصيري موجودٌ هنا أيضًا. سمعَ خطواتٍ تقترب أكثر فأكثر، ثم ضحكة خفيفة. صرعَهُ الخوف من أنْ يراه هذان القادمان هنا، فانكمشَ أكثر في عمق الظلام. لكن الزوجين اللذين يتلمّسان طريقهما على طول الدرب المعتم الصامت لم يرَيَاه، عَبَرا متعانقين، فتنفّس إدغار الصعداء. رغم ذلك، توقّف صوتُ وقع خطاهما أمام المقعد الذي يجلس عليه. ضغَطَا وجهيهما بعضًا على بعض، لم يكنْ إدغار يرى أيّ شيء بوضوح، فقط سمع آهةً خارجةً من فم المرأة، وصوت الرجل يتمتم بحرارةٍ كلماتٍ مجنونة. رغبتُه في معرفة ما سيحدث، اخترقتْ مخاوفه كسهمٍ من نار، فشعرَ برعشة لذيذة. بقيَ على هذه الحال لدقيقة، ثم سمعَ خُطًى على الأرض كالسابق، يبدو أنهما يمشيان، ثم تلاشى وقع أقدامهما بسرعةٍ في الظلام.

ارتجف إدغار، وراح الدمُ يسري في شرايينه من جديد، لكنه أكثرَ حرارةً وهيجانًا من قبل. فجأةً، عاد وحيدًا بشكلٍ لا يُحتمل في هذا الظلام المخيف، أحسَّ بحاجةٍ بدائيةٍ قويةٍ إلى صوتٍ مؤنس، إلى عناق، إلى غرفةٍ مضاءة، إلى الناس الذين يحبّهم. كأنّ كلَّ الظلام المربك لهذه الليلة المخيفة قد تسلّل إلى داخله، وراح يمزّقه إربًا إربًا.

قفز على قدميه، يجبُ أنْ يصل إلى البيت، إلى أيّ بيت فيه غرفة مضاءة مهما كان شكلها، وفيه بشر. ما الذي سيحدث له في النهاية؟ ماذا لو ضربوه وزجروه؟ لم يعد خائفًا من أيّ شيء، بعدما عاش الظلمة والخوف وحيدًا.

جرّته حاجتُه من أنفه، وعلى الفور صار أمام الفيلا مجدّدًا، يضع يده على مزلاج البوابة البارد. رأى إحدى النوافذ مضاءةً من بين خلل الأوراق الخضراء، ورأى بعينِ قلبه الغرفة، بل كل الغرف المؤنسة والناس خلفَ نوافذها. جعلَه الاقترابُ سعيدًا، وكذلك الإحساسُ المطمئنُ بأنه على مقربةٍ من أشخاص -كان يعلَم- يحبُّونه. وإذا ما تردّد الآن... فمن أجل زيادة لذّة التوجُّس فقط.

سمع صوتًا وراءه، صاح بقوةٍ مشدُوهًا: «إدغار! إدغار هنا!»

لقد رأته خادمةُ جدّتِه، فأسرعتْ نحوه وأخذتْ بيده. فُتح الباب الداخلي فورًا، وقفزَ كلبٌ يركض إليه وينبح، ثم خرجوا من المنزل جميعًا وهم يحملون المصابيح. لقد سمعَ أصواتًا، صيحاتِ الابتهاج والدهشة، ووقْع خطًى تقتربُ وتحدثُ جلبةً مرِحة، وخيالاتٍ لأشخاص قد ميَّزهم الآن. في الأوّل وصلتْ جدّته بذراعين مفتوحتين، وخلفها -اعتقدَ أنه يحلُم دون شكّ- كانت أمُّه، بعينين محمرّتين من البكاء، مرتجفةً ومرتعبة. وجدَ نفسه وسْطَ دوّامةٍ من المشاعر المختلطة والعواطف الجيّاشة، لا يعرفُ ما يفعل أو يقول، ولا يعرف ما الذي يشعر به أيضًا، هل كان خوفًا أم فرحًا؟

(15)

الحلم الأخير

كلُّ شيءٍ كان مشروحًا سلفًا، إذ كانوا يبحثون عنه في البلدة، وينتظرون قدومه في أي وقت. كانت أمُّه قد ارتعبتْ من الطريقة المجنونة التي انطلق بها الطفل المفجوع، وعرفتْ أنه لا بُدّ من البحث عنه في «سيمرينغ». كان الجميعُ في حيرةٍ وبلبلة مريرة، ولم تكنْ أكثرُ الفرضيّات سوءًا مُستبعدة. ثم جاء رجلٌ وقال إنه رأى الطفل عند مكتب التذاكر في محطة القطار قرابة الساعة الثالثة عصرًا، وهكذا عرفوا من المحطة أن إدغار قد اشترى تذكرة إلى «بادن». ودون أيّ تردّد، تبعتْه أمُّه في الحال، وقبل ذلك أرسلتْ برقيّةً إلى «بادن» وأُخرى إلى والده في فيينا، مثيرةً قلق العائلة بأكملها، وقد قام الجميعُ بكلّ ما يمكن فعله لإيجاد الولد الفارّ.

ها قد ألقوا القبضَ عليه دون استخدام القوة، لقد حقّقوا النصر بهدوء. أخذُوه إلى الداخل، وبشكلٍ غريب أحسَّ إدغار أنّ الكلمات القاسية التي وُجّهتْ إليه لم تؤثّرْ فيه، لأنه رأى الفرحَ والحبّ في عيونهم، وحتى التظاهر بالغضب لم يستمر على وجوههم لأكثر من دقيقة. ثم عانقتْه جدّته مجددًا، بدموعٍ تفيض، ولم يعد أحدٌ يتحدّث عن الخطيئة التي ارتكبها. أحسَّ أنه محاطٌ بعنايةٍ مُحبّةٍ ورائعة، أخذت

الخادمة معطفه، وجلبتْ له واحدًا أدفأ، وسألته جدّته إذا ما كان جائعًا أو يريد أي شيء. اجتمعوا حوله طارحين الأسئلة بشيءٍ من القلق المحبّ الحنون، وعندما استشعروا كم هو واثقٌ من نفسه، أقلعوا عن ذلك. أحسَّ إدغار بتلك اللذة التي كرهها، لكنه اشتاق إليها، لذّة أنْ يكون طفلًا. وكان يشعرُ بالعار بسبب التمرّد الذي قام به في الأيام الأخيرة، رغبةً منه في أنْ يتخلّص من كل ذلك، ويستبدل به المتعةَ الكاذبة للعزلة الفردية.

رنَّ الهاتفُ في الغرفة المجاورة، سمعَ صوت أمه، والتقطَ بعض الكلمات منها: «إدغار... عاد... نعم، جاء إلى هنا... آخر قطار». تساءل لماذا لم توبخه بشدة، واكتفتْ بالنظر إليه بوجهٍ مقهور. صارتْ توبتُهُ أعنفَ وأكثر إفراطًا، كان يفضّلُ أنْ يهربَ من عناية جدّته وعمّته الفائقة، ليذهب إلى الغرفة المجاورة ويطلب من أمه السماح. ليُخبرها مُستكينًا، لكنْ بكامل إرادته، أنه يريد أنْ يعود طفلًا مُطيعًا من جديد. لكنه حين نهض، سألتْه جدته بنبرةٍ مذعورة: «أووو... إلى أين تذهب؟»

جمُد في مكانه مخزيًّا، لقد كانوا خائفين من أيّ حركةٍ يقوم بها. لقد أرعبَهُم كلَّهم، وصاروا يخشون أنْ يهرب مرة أخرى. كيف لهم أنْ يفهموا أنْ لا أحدَ حزينٌ ومتأسّفٌ على فراره أكثر منه؟

أُعدَّت المائدة، وجلَبُوا له عشاءً بعجالة. جلستْ جدته بجواره، لا ترفع عينيها عنه. وعلى الجانب الآخر جلستْ عمّته، أما الخادمة فأمامه، بشكلٍ حُوصِر فيه بدائرة. شعر بدفء هذا الحنان، لكنّ ما

أزعجه هو أنّ والدته لم تأتِ إلى الغرفة، لو كانت تعلُم كم هو نادم، لكانت جاءتْ بكلّ تأكيد.

توقفت عربةٌ أمام البوابة الخارجية، جفلَ الجميع من صوتها، وهذا ما جعل إدغار يرتبك. خرجتْ جدته، سمع أصواتًا مرتفعةً في الظلام الذي في الخارج، وعلى الفور عرفَ أنّ والده قد جاء. بخوفٍ وجُبن، أدرك إدغار أنه سيعود محبوسًا في الغرفة وحيدًا من جديد، كانت أيُّ لحظة من الوحدة تخيفه. لقد كان والده صارمًا، كان الشخص الوحيد الذي يخاف منه بحقّ. استمع إدغار إلى الأصوات في الخارج، يبدو أنّ الأبَ غاضبٌ جدًّا، يتكلّم بنبرةٍ ساخطة وعالية. تداخلتْ أصواتُ جدته وأمه مع صوت الأب، لتلطيفِ حدّة الكلام، فمن الواضح أنهما تحاولان تهدئته. لكنّ صوتَ الأب ظلّ صلبًا، حازمًا مثل وقْعِ الخُطَى التي تقترب الآن، أقرب فأقرب، وصلتْ إلى الغرفة المجاورة، إنها الآن خلف الباب تمامًا، الباب الذي دُفعَ بقوة.

كان والده فارع الطول، أحسَّ إدغار كم هو ضئيلٌ ووضيعٌ جدًّا، حين دخل إليه بأعصابٍ مشدودة وغضبٍ عارم.

«ما الذي كنتَ تفكّر فيه أيها الصعلوكُ الصغير الفارّ؟ كيف تجعلُ أمك تخافُ عليك هكذا؟»

كان صوته محتقنًا، ويداه تتحرّكان بشكلٍ هستيري. دخلتْ أمُّ إدغار الغرفة بخطى هادئة، ووقفتْ خلف الأب، وجهُها في الظل.

لم يجبْ إدغار. كان عليه أنْ يبرّر فعلته، لكنْ كيف لهُ أنْ يقول إنه كان مخدوعًا ومطعونًا، هل سيتفهّم والده ذلك؟

«أَليس لكَ لسانٌ في فمك؟ ماذا حدث؟ أيمكنك أنْ تخبرني! هل كان هنالك شيءٌ لم يعجبك؟ لا بدّ من أنّ هناك سببًا دفعكَ إلى الهرب! هل آذاكَ أحدٌ بأي شكلٍ من الأشكال؟»

تردّد إدغار، فقد جعلَهُ تذكُّرُ الموضوع يغضبُ من جديد، وكان على وشك التصريح باتهاماته. ثم رأى -وقد جعلَ ذلك قلبه يقفُ عن النبض- أمَّهُ تقومُ بحركةٍ غريبة خلف ظهر أبيه، حركةٍ لم يفهمها للوهلة الأولى، لكنه الآن يبصرُ التوسُّل في عينيها، ويرى أنها -برفقٍ بليغ- رفعتْ إصبعها إلى شفتيها في إشارةٍ تطلُب منه السكوت.

عند ذلك، أحسَّ الطفلُ بالدفء، وسَرَتْ بهجةٌ عنيفة وهائلةٌ في جسده كلّه. لقد فهمَ أنها تعطيه السرَّ لكي يخفيه، وأنّ مصيرَ إنسانٍ آخرَ معلّقٌ بين شفتيه الصغيرتين. امتلأ قلبُه بالغرور والفرح حين شعرَ أنها تثقُ فيه، كان على أُهبة الاستعداد والرغبة للتضحية، ينوي أنْ يُبالغَ في ذنبه لكي يُظهِر كم هو رجُل. سحب نفسه للأعلى:

«لا، لا، لم يكنْ هناكَ أيّ سبب. كانت الماما لطيفةً معي جدًّا، لكنني كنتُ شقيًّا، تصرفتُ بشكلٍ سيء... ومن ثمّ... من ثم هربتُ لأنني كنتُ خائفًا من العقاب».

نظر والده إليه ثم إلى الوراء. كان يتوقّع كلَّ شيء إلا هذا الاعتراف. لقد جرَّده الاعترافُ من سلاحه، وأزالَ غضبه.

«حسنًا، إذا كنت متأسّفًا على ما فعلتَ فهذا جيّد. لن أقول المزيد عن هذا الأمر اليوم، أتوقّعُ أنك ستفكّر أكثر في المرة القادمة، أليس كذلك؟ لا تدَعْ أمرًا كهذا يتكرّر مرة ثانية».

توقفَ عن الكلام ونظر إلى الولد، وقد بدَتْ على وجهه علامات السماح.

«كم أنتَ شاحبُ الوجه! لكنني أعتقد أنكَ ازددت طولًا بعض الشيء. آملُ ألا تلعبَ مثل هذه الألاعيب الصبيانية مرة أخرى. في كل حال، أنتَ لم تعد ولدًا صغيرًا، أنتَ كبير بما يكفي لكي تعرف الصواب».

طوال ذلك الوقت، كان إدغار ينظر إلى أمه، اعتقد أنه لمَحَ بريقًا في عينيها، أم أنه انعكاس الضوء فحسب؟ لا، إنه ضوء مبتلّ، وثمة ابتسامةٌ ترتسمُ حول شفتيها لتشكُرَه. أرسلُوه إلى النوم، وهو لم يعد يمانع أنْ يبقى وحيدًا، فلديه الكثير من الأمور التي ينبغي التفكير فيها، الكثير من الأمور النابضة والواعدة. كلُّ الألم الذي عاناه في الأيام الماضية قد تلاشى أمام الإحساس القوّي لتجربته الحقيقية الأولى، وكان سعيدًا بالانتظار الغامض لأحداث المستقبل. في الخارج، كانت الأشجار تصفر تحت جنح الظلام، لكنه لم يعد خائفًا منها. لقد تبدّدَ كلُّ استيائه وتململه من الحياة، عندما عرفَ كم هي حافلةٌ بالوعود والآمال. أحسَّ أنه يراها للمرة الأولى على حقيقتها، لا مغلَّفةً بآلاف الأكاذيب الطفوليّة، بل عارية بجمالها المرعب. لم يعرف من قبلُ أن الأيام تتناوبُ بين الألم واللذة، وقد أعجبتُه فكرةُ أنّ كثيرًا من الأيام

مازالت أمامه، وأنّ حياةً كاملة ستكشفُ أسرارها له. الشُعور المُسبق بتنوّع الحياة الغنّي دغدغَ قلبه، وأحسَّ لأول مرةٍ أنه قد فهمَ طبيعة البشر، أنهم بحاجةٍ إلى بعضهم بعضًا حتى ولو كانوا متخاصمين في الظاهر، وكم هو جميلٌ أنْ تكون محبوبًا من قبلهم. لم يعد قادرًا على التفكير في أيّ شيء أو أي شخصٍ بكراهية، ولم يندم على أيّ شيء فعله، حتى أنه شعرَ بالامتنان تجاه البارون، المغوي، عدوّه الأمرّ، لأنه قد فتحَ لهُ البابَ إلى العالم الذي اكتشفَ فيه مشاعره الحقيقيّة الأولى.

كان من المريح والممتع التفكيرُ في كل تلك الأشياء في الظلام، مختلطةً بمشاهد من الأحلام، بين الصحو والإغفاء. أحسَّ أنّ الباب قد فُتح فجأةً، ودخلَ شخصٌ مّا. لم يصدّق ذلك، لكنه كان ناعسا إلى درجةٍ لا يقدُر فيها أن يفتح عينيه. شعرَ بأنفاسِ وجهٍ رقيقٍ بالقرب من وجهه، يداعبُه بدفءٍ لطيف، وعرف أنّ أمه تقبّله وتمسّد شعره. أحسَّ بالقبلات، بدموعها المستجيبة للعناق، واعتبر ذلك بمثابة المصالحة، والشكر على سكوته. بعد عدة سنوات، سيدركُ أنّ تلك الدموع الصامتة كانت عهدًا من امرأةٍ رمَتْ شبابها خلفها، وأعلنتْ أنها ستكون لهُ وحده من الآن فصاعدًا، لطفلها فحسب. أنها كانتْ اعتزالا للمغامرات وحفلةَ توديعٍ لكلّ رغباتها. لم يكن يعلم أنها ممتنةٌ إليه أيضًا، لأنه أنقذها من مغامرةٍ لن تقودها إلى أي مكان. وأثناء ضمِّها لهُ، كانت تُحمِّلُه -وكأنها تكتبُ وصيَّتها- عبءَ الحبُّ الأحلى والأمرّ في حياته المستقبلية. لم يفهم الطفل حينها شيئًا من ذلك، لكنه شعرَ كم من المبهج أن تكون محبوبًا جدًّا، ولهذا اعتقد أنّ هذا الحبّ

الذي كان غارقًا فيه أصلا، هو السرُّ الأعظم في العالم.

عندما سحبتْ يدها عنه، وشفتيها عن شفتيه، وابتعدَ خيالُها الوديع عنه، مع صوتِ حفيف الثوب، تاركةً بعضَ الدفء خلفها، وأنفاسًا عذبةً فوق شفتيه. شعرَ بتوقٍ لذيذ لأنْ يذوقَ هاتين الشفتين العذبتين عدّة مراتٍ أخرى، ولأنْ تعانقه بحنانٍ بالغ، لكنّ ذلك الالتماسَ الغامض للسرِّ الذي كان يتوقُ إليه، حُجِبَ بسحابةٍ من ظلال النوم. مرة أخرى، عبَرَ شريطُ صُورِ الساعاتِ الأخيرة سريعًا في ذهنه، مرةً أخرى ينفتحُ كتابُ الشباب أمامَه بجاذبيّة مغرية. ثم استسلم الطفل للنوم، وبدأ يحلُم الحلمَ الأعمقَ والأكثر غموضًا في حياته.

ستيفان زفايغ

السرّ الحارق

حين يقطع الحطّاب شجرة ليتدفأ بها، لا يفكر في العصفور الذي يحرمه دفء عشّه بين أغصانها، ولكنه يشفق عليه إذ يراه مذعوراً يناجي وحشاً كاذباً خلف نافذته. كذلك هو الإنسان في تعامله مع أخيه الإنسان، حطّاباً تستبدّ به شهوة التملّك، وتتضخم فيه نزعة الأنانية. حطّاب لا تصمد أمامه أصلب الأشجار، ولا هو يهتم بما يسقط من فراخ.

لم يتوقف ستيفان زفايغ طوال مسيرته الإبداعية عن الحفر في باطن الذات الإنسانية ومكاشفة أدقّ خباياها وأعنف انفعالاتها كالحبّ والشغف والقلق والخوف والكراهية والغضب... وبلا مواربة أو إيهام يضعنا أمام الحقيقة، وهو يصرفها في رواية "السرّ الحارق" على لسان طفل في الثانية عشرة من عمره لمّا يبلغ الحلم. وعندما يتوقف الصبي عن أن يكون معياراً للتحكم على الأشخاص، تتكشف لنا الحياة من زوايا تعجز عن بلوغها أو حتى عن إدراكها إلا [illegible].

تحوّلت هذه الرواية إلى فيلم سينمائي ثلاث مرات، كانت الأولى عام 1933 وحينها منعت الحكومة النازية ممثلة بوزير الدعاية جوزيف غوبلز عرض الفيلم في الصالات الألمانية. الثانية عام 1977، والثالثة عام 1988.

بلال السعودي

